صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية ادبية تصدر في دمشق

دمشق ـ ص.ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

نيسان

١٩٧٦

ملحق العدد ٢٠

* اخي الصافي *

بقلم :

رئيس التحرير

اخي الاستاذ الصافي ! ياشاعرنا الكبير! قلوبنا معك . لقد بلغنا ـ نحن اخوانك في دمشق ـ نبأ عينيك الغاليتين ، فحز الألم في قلوبنا ، وملأ الاسى نفوسنا .

يا شاعرنا الكبير ! لو امكن الفداء والعطاء لفديناك بأعز ما نملك ، ولأعطيناك من أبصارنا ما يكفي لسعادتك وهنائك ، فقد اعطيتنا من بصيرتك الكثير الكثير ، وتركت لنا من عبقريتك وشاعريتك ما أطربنا وشجانا وأغنى نفوسنا . فلك علينا ما نعجز عن وفائه .

عافاك الله ، ومد في حياتك وتقبل من اخوانك في دمشق قبلة تحمل كل معاني الوفاء والاعتراف بالفضل والجميل .

أخوك

مدحة عكاش

هل للأدب مستقبل ؟

بقلم : نومان بود هورتز

ترجمة : حسني عايش

على الرغم مـــن ان انتشار الكتاب وصناعته لـدى كثير من النقاد الطليعيين تحتل مكانة مرموقة في دنيـا وسائل الاتصال المختلفة ، فان هناك اصواتا اخذت ترتفع هذه الايام تنذر بالانقراض الوشيك ، ليس للرواية الادبية او الشعر التقليدي فحسب ، بل يمتد هذا التشاؤم ليشمل الادب كله ايضا ، وانطلاقا من هذه الرؤية القائمة ، فان الناقد ـ بود هورتز ـ يحاول في مقاله التالي أن يتأكـد من صحة وجدية هذه النظرة السوداء للادب ، ولعله من المستحب ان يعلن في نهاية مقاله ان الادب لن ينقرض كما يقول اصحاب تلك النظرية ، ولكنه يلد ولادة جديدة ، وهو لم يتخذ حتى الان لهذه الولادة الحادثة شكلا واضحا .

يعمل كاتب هذا المقال نورمان بود هورتز محررا لمجلة (كومنتري ـ تعليق » وهي واحدة من انشط المجلات الفكرية والنقادية في الولايات المتحدة ، وللكاتب مقالات ودراسات جمع بعضها في كتب ومنها ـ الكتابة الامريكية في الخمسينات وما بعدها ـ و ـ ما ينبغي ان تفعله وما لا ينبغي ـ ..

يقول بود هوتز : لعل السؤال الاكثر ورودا عـــلى الذهن بشأن مستقبل الادب هو : اثمة مستقبل للادب على الاطلاق ؟ . لقد اعلن الناقد الانكليزي المعروف والشاعر ايضا ، ت. س. اليوت قبل خمسين عاما بان الرواية قـد

ماتت ؟ ولكنه لم يسحب حكمه على مختلف اشكال الادب ، فاليوت قصر رأيه على ذلك الشكل من الادب والذي ظهر كرد فعل او استجابة لحاجات واغراض معينة في عصر معين، ولكن هذا الشكل لم يعد اليوم يؤدي خدمة كتلك التي كان يؤديها في ما سبق ، وهو تبعا لذلك فسيحل مكانه شكل آخر من الادب ، وقد اكد هذا القول ناقد اخر في الثلاثينات هو – ادموند ولسون – الذي اعلن ان القصيدة ببنائها الشكلي – الكلاسيكي • تحتضر ، وهو كما نعتقد لم يكن يقصد القول : ان الشعر سوف يتلاشى ، فقد ذكر ان الشعر سوف يظل يقال ويكتب ، ولكنه سيتخذ اشكالا جديدة تختلف عن تلك الاشكال التي سلكتها القصيدة الكلاسيكية •

اما هذه الايام فاننا نسمع ، ومن جميع الجهات ، اصواتا تقول ان الادب نفسه ، ليس لون من الوانه فحسب قد انتهى والى غير رجعة ، وهو قد اصبح تقليدا قديما ، وقد غالى بعضهم اكثر من ذلك عندما ادعى ان كل اشكال المطبوعات لن تستطيع النجاح في معركة البقاء التي تخوضها ضد الاذاعة المرئية أو معها ، وغير ذلك من الانجازات التقنية في دنيا التواصل والاتصال القادرة على الاعلام الفوري المصحوب بالامتاع • وان اليوم الذي سيجد فيه كل منا آلة او جهازا في بيته يزوده في حركة بسيطة بكل ما يحتاج اليه او يرغب في مشاهدته من محاضرات او موضوعات مما يوجد في بطون دوائر المعارف والموسوعات المختلفة ليس ببعيد • وضمن اطار تقني من هذا النوع ، فان الكتب ستصبح كالمخطوطات طرازا باليا عفا عليه الزمن ، وسوف تقتصر الطباعة على الامور ذات المنفعة الجمعية فقط •

ان العيون التي تتوقع هذه الرؤية المستقبلية للكتاب وللادب ايضا لاترى ملامحها وخطوطها على لوحات المهندسين فحسب ، بل ترى ذلك في عقول وقلوب الجيل الجديد ايضا ، فالبرغم من ان هذا الجيل هو اكثر الاجيال الانسانية في التاريخ نصيبا من التعلم والثقافة • (او هكذا يدعي) الا ان اقباله على الكتب اقل من اقباله على الخيالة ، واقباله على ما يخاطب المشاعر بشكل سطحي اكثر من اقباله على ما يخاطب العقل ، وان تقبله للكلمة العابرة اكثر من تقبله للفكرة العميقة ، واقباله على الثقافة السطحية ، وضمن مناخ كهذا فان هذا الجيل قد اعتبر متجاوزا لحدود الحاضر منغمسا في المستقبل الذي طرد الادب من حماه ولم يجد فيه لنفسه مستقرا ومكانة •

والان ماذا علينا ان نفعل حيال هذه التنبوءات ؟ • انعتبرها صحيحة ؟ ان محاولة التنكر لها غير معقولة ، ولا سيما ومظاهر التقنية المنافسة للادب تلوح في الافق ، وهاهم انصار هذه النظرية يشيرون لتلك المظاهر ويستشهدون بها وبمنجزاتها الماثلة امام اعيننا والتي يمكن ان يجنى دور تحقيقها في المستقبل ، ولو بعض الشكوك بمدى الجدوى الاقتصادية في ربط كل بيت بشبكة اتصال الكترونية تساور العديد من الناس •

والمفروض انه اذا كانت هذه التنبوءات معقولة او قابلة للتحقيق او ان مقدماتها تشير الى ذلك ان يبدأ

تناقص انتاج الكتب والمطبوعات من الآن ، ولكــن الواقع خلاف ذلك ، فانتاج الكتب ومبيعاتها وربما قراءتها في تزايد ، وبدلا من تضمحل دور النشر نجدها تزدهر ، وبخاصة بالنسبة لنشر الكتب الزهيدة الثمن ذات الغلاف الورقي والتي تطبع وتوزع وتباع اعداد هائلة منها • ولقد كان المرء يجد صعوبة في الحصول على الكتاب قبل عدة سنوات ، ولكنه اليوم يعتمد عليه في كل مكان او لاتكاد تخلو من اعداد كبيرة متنوهة من الكتب مدينة او قرية او ضيعة نائية • اذن فتفسير هذه الظاهرة ، ظاهرة انتشار الكتاب على انها علامة على اضمحلال وانحدار لاهميــة الكتاب والكلمة المطبوعة امر يثير الدهشة ويربك التفكير•

الشباب والثقافة المضادة :

والان ماذا عن الشباب والادب ؟ •

من الواضح والمؤكد ان الكتاب هو اخر شيء يسعى الشباب للحصول عليه ، هؤلاء الشباب الذين برزوا علـى مسرح الاحداث واحتلوا وعي العالم في الستينات • نعم لقد سمعنا انهم قرأوا روايات ــ هرمان هيس ــ و ــكورت فونجيت ــ ولكن التفسير لهذه القراءة انها شذوذ عـن القاعدة ولان ما قرأوه لم يكن الا هجوما على الادب وهدما له من الداخل وحربا على المنطق والجدل المنظم ، وفـي جميع الاحوال فان الناطقين باسماء هؤلاء الشبان اكدوا بدون كلل بان الكتب ليست هما اساسيا من همومهـم في هذا العالم •

وان المرء ليتسائل ، كم هي نسبة الشبان الذين ركضوا وراء الثقافة الجديدة او انضموا اليها من مجموع الشباب ، وكم يا ترى ستكون هذه النسبة من بين الاجيال القادمة ؟ • لقد ادعت وسائل الاعلام ان جميع الشبان هللوا وكبروا لهذه الثقافة والتزموا بها ، ومع اننا نصدق وسائل الاعلام ، الا اننا نذكر هنا بان ٥٠٪ من هؤلاء الشبان صوتوا الى جانب نيكسون المحافظ وضد ماكغفرن الليبرالي في حملته الانتخابية للرئاسة سنة ١٩٧٢ م في حين كانت وسائل الاعلام قد توقعت ان يحصل ماكغفرن مرشح الشباب على جميع اصواتهم ، وان دل هذا على شيء فانه يدل على أن نصف هؤلاء الشباب لا يلتزمون بهذه الثقافة واذا كان نصف هؤلاء الشبان لا يسير مع الاتجاه الجديد ووفق وحيه ومبادئه ، فاحرى بنا ان لا نعتبر النصف الاخر ممثلا للاجيال القادمة •

ألا ترى أننا ونحن في منتصف السبعينات نجـد أن الثقافة الجديدة تذبل وتضمحل في الحيـاة اليومية ، وان كانت بصماتها وآثارها لا زالت واضحة في مجـال واحد فقط ، ألا وهو مجال الجنس ، ان كل يوم يمر يبرهن لنـا أن الثقافة الجديدة كانت أشبه بانتاج فريد في فترة جديدة لن يتكرر ابدا ، ولم تكن كما يظن البعض عهدا جديدا من تطور النوع الانساني • لقد نجحت أصـوات الستينات في الجامعات ، ليس فقط بتوضيح رؤية الشباب لانفسهم ، بل في انجاب اناس عادوا الى الكتب الذي تراكم عليها الغبـار أكثر من بوصة أو بوصتين من جديد أيضا •

الادب والثورة :

اذن ، فالادعاء الذي يقول بأنه ليس للادب مستقبل يجب أن لا يؤخذ مأخذ الجد ، وانما الذي يجب أن يؤخذ هذا المأخذ هو ما وصل اليه هذا الادعاء من تقبل وانتشار بين الناس • ذلك أن الذين تنبأوا للادب بالموت ، لا يعلنون

عن ولادة أدب جديد ، ليس في مقدورهم السيطرة عليه ، بل وكل أملهم أن يتحقق ما دعوا اليه فقط ، ألا وهو اندثار الادب ، كما ان بعضا من هؤلاء المتنبئين يتطلعون الى موت الادب نزعمهم أن الكتابة ليس الا اداة من أدوات الاستعباد للانسان ، ولنستمع الى ما يقوله «نورمان براون» في هذا الصدد :

(لسنا غير اسرى لسلطة تقيم خارج ذواتنا ، وبصراحة فان هذه السلطة ليست غير الكتب ، التي تكبل أفكارنا وتعمي بصائرنا ، فلا نرى الا من خلال عيون ميتة ، ان الكتب مستقرة كالطلاسم في أعماقنا ، انها سلطة الماضي وسطوته ، لا زالت تباشر تأثيرها علينا ، ولعل أعظم انجاز نقدمه على طريق التحرير الذاتي هو أن نطرد أشباح هذه الكتب المعشعشة في أعماق أذهاننا ..)

ويضيف براون قائلا : (انه ليس الكتب وحدها هي التي تكرس عبوديتنا للتراث ، وانما العبودية أيضا لذلك الماضي هي التي تعزز اذلال سلطة العقل والمنطق فينا ، ان مثل تلك السلطة السلفية هي التي يجب علينا أن نتحرر منها اذا أردنا لأنفسنا وأرواحنا الخلاص والنجاة ، ان جميع الكتب ، كما يقول براون – وأعتقد أنه يقول ذلك حقيقة لا مجازا – يجب أن نشعل فيها النار « ولتحترق الكتب في نار الجنون المقدس ، وليخف عبئها علينا ولتتطاير في اللهيب » .

اذن ، فنورمان براون يعتبر الكتاب عقبة أمام ثورة عارمة لا مثيل لابعادها في التاريخ ، ثورة ضد الحالة الانسانية نفسها ، بينما يرى آخرون أن انحدار الادب ثم موته يعود لأسباب سياسية ، فقد صرحت احدى الفتيات الثوريات في نهاية الستينات ، بأن الادب مضاد للثورة ، وقد كان تصريحها ترديدا لكلام استاذها في الادب الذي شجب الموضوع الذي يدرس ، لأنه يجعلنا متبلدين بقتله غضبا على الوضع الراهن ، وبتشجيعه للناس على التعايش السلمي مع الاشياء كما هي . لقد نسي الاستاذ وتلميذته أن الاعمال الادبية العظيمة كروايات (ديكنز) كان لها تأثير مضاد . فقد أطلقت غضب الشعراء من عقاله ، وأثارتهم نحو المطالبة بالاصلاح الاجتماعي والسياسي ، وبذلك ساعدت الناس على الرؤية بواسطة عيونهم بعكس ما ادعاه نورمان . ومع ذلك كله فنحن لا ننكر بأن الادب والفن عموما ، والفن الاعظم بشكل خاص ، هي بشكل عام مؤثرة سياسيا ، وكابحة لجماح وجذوة الشباب ، ومجمدة لآمال اليوتوبيا .

لقد عبر الكاتب (ت. س. اليوت) عن هذه المسألة بصراحته المعهودة وكلماته الحاذقة حين قال : « في النقد أنت مسؤول عما تريد فقط ، ولكنك في الخلق والابداع مسؤول عما تستطيع أن تفعل في المادة التي يجب عليك قبولها من حيث هي ، ثم الانطلاق منها الى آفاق جديدة ، ان هذه المادة التي يجب على الفنان قبولها بكل بساطة ، والتي يعلمنا قبولها لا مقاومتها أو العمل ضدها هي الحياة ذاتها كما يعرفها الفنان أو الاديب في عصره وفي مكانه » ولكن المادة المطروحة للسؤال أو التساؤل ، كما يقول اليوت ، تشمل العواطف والانفعالات أو شعور الكاتب نفسه ، وهي مادة يجب أن يقبلها بكل بساطة ، فليست هي فضائل يجب أن يضخمها ولا رذائل يجب أن يخفف منها .

اذن ، فلا عجب أن نجد الثوريين أو الراديكاليين أعداء للادب ، لأنه يتطلب منهم تغيير أنفسهم قبل تغيير المجتمع .

السأم من الكتب :

وبايجاز ، فلاننا نعيش في عصر العنف أو عصر تحرر الشباب ، فان التنبوءات كثرت وتزايدت ، كما انها قبلت بسرعة وبالنسبة للمستقبل فان الادب سيصبح موضع شك وتحقير مرة أخرى في حالة عودة العنف أو التمرد . لكن فكرة انقراض الادب بالنسبة للكثيرين تظل أو تبدو معقولة للاسباب تتعلق بالتاريخ السياسي . ولاوضح لكم هذه النقطة على نحو مبسط ، فانني أقول أن هؤلاء سيجدون أنفسهم في حالة سأم أو ضجر أو ملل من كل شيء يتصل بالادب . فنحن نعرف بأن بعض الناس في كل زمان ومكان لا يحبون الادب أو هم يتقززون منه ، ولكن قرفهم هذا لهو شيء يدل عليهم أنفسهم أكثر مما يدل على الشيء الذي

يقرفون منه ، لكن الامر يصبح جد مختلف عندما نجد أن الادباء أنفسهم يقرفون من الادب ، عندمـا نجد أن الناس الذين كرسوا حياتهم لدراسة الادب أو تعليمه أو كتابته ، عندما نجد أن الناس الذين كان الادب عندهـم عاطفة أو شهوة قلما يقرأون رواية جديدة أو حتى ديوانا جديدا من الشعر ، ان الذي يقرأ الشعر اليوم هم الشعراء لمراجعة شعر بعضهم بعضا ، لكن هل يقرأ أي انسان غيرهم شعرا جديدا ؟؟ نعم لا يزال ادب القصة ، وهو الذي أصبح المظهر الادبي السائد في ثقافتنا لحوالي قرن من الزمن يستقطب جمهورا كبيرا ، لكنه هو الآخر أصبح مملا عند كثير من الناس الذين كانوا يحبونه في الماضي ، فقبل حوالي عشرين سنة اعترف الناقد المشهور اللامع (ليزلي فدلر) في بداية مقالة كتبها في مجلة أدبية معروفة، بأن مجرد رؤية الروايات الجديدة يثير فيه رغبة جامحة أو بائسة للهرب الى الخيالة بدلا من قراءة تلك الروايات ·

لقد كانت العبارة التي قالهـا ليزلي فدلر مثيرة ومسيئة الى كل محبي الادب في العـالم ذلك الوقت ، ولكن مثل هذه العواطف التي تدل عليها عبارته أصبحت تلاقي الرواج والتقدير والقبول والتوقع اليوم ، كما أن ناقدة أخرى مشهورة هي (سوزان سونتاج) اعترفت هي الاخرى بقرفها من الروايات الجديدة التي قرأتها ، ولكنهـا لم ترغب ، بسبب ولائها للادب ، الجهر بايمانها بأن الادب قد مات ، لكنها مع هذا وضعت نظرية لتفسير السأم من الادب، حيث أصبح ذلك السـأم من الادب بموجب تلك النظرية شكلا جديدا من أشكال الاستجابة المناسبة للادب · ثم ماذا نقول عن (ريتشارد بويرير) استاذ الادب والمحرر والناقد واسع الانتشار الذي امتدح رواية حديثة بقوله : انها انتاج عبقري ، ولكنه أضاف ، أنه لولا أن دعي الى قراءتهـا ومراجعتها فانه ما كان ليهتم بقراءتها ·

ما الذي سبب السأم من الادب يا ترى ؟·· لم يحدث تغيير أساسي عند بويرير الذي اعترف بشجاعة بسأمه من كثير من الآداب « الكلاسيكية » المعروفة ، ولكن المشكلة عند نقاد مثل (فدلر وسونتاج) اللذين ركزوا اهتمامهما على الحركة الحديثة التي تؤكد التجريب الشكلي هي في تقليدية الجديد تلك التي ساعدت على اهتراء الحركة الحديثة ، لأن تلك الحركة أصبحت أكثر تقليدية من كونهـا حديثة ، وبالفعل لا يبدو عنيفا وقديما وباليا – أو موضة قديمة – وأكثر تأخرية أكثر من هؤلاء الطليعيين المزيفين أصحاب تلك النظريات المستحدثة ·

عندما تصدى (اليوت وباوند وجويس) وغيرهم من الادباء المؤسسين للحركة الحديثة كي يجعلوها جديدة ، فان منطلقهم في تجربتهم الشكلية تلك ، كان اختراق الاعراف الادبية التي صارت في رأيهم تافهة لتكوين مفهوم جديد للحقيقة ، وللعثور على طريقة جديدة لاحلال النظـام في الفوضى التامة للحياة المعاصرة · ولكن للاسف فان الاعراف الادبية التي تقف حجر عثرة في سبيل ادراك سليم ومنظم للعالم هي الاعراف التي وضعتها الحركة الحديثة نفسهـا والتي أصبحت حرفية وأكاديمية ومسببة للسـأم مثل أو أكثـر من الاعراف الادبية التي أعلنت الحركة الحديثـة الحرب عليها ·

انحدار وتآكل الاتجاه الطليعي :

رغم أن الحركة الحديثـة تعني التجريب الشكلي ، الا ، أنها تتبنى موقفا معينا تجاه العالم الحديث ، وسـواء أكانت آراء أصحاب الحركة يمينية مثلما هو الحال بالنسبة لباوند واليوت أو يسارية مثل ما هو الحال بالنسـبة لـ اراغون وغيره ، فان جميع كتاب الحركة الحديثة متفقون في عدائهم للمجتمع البرجوازي أو ما نسميه نحن اليوم بقيم الطبقة الوسطى · وبكلمات اخرى انهم غرباء ونتيجة للعذاب الذي تسببه لهم هذه الغربة أو الاحساس فيها كان لديهم ادراك مستقل للعالم جعلهم بالفعل خارجين أو مستثنين منه وبمرور الزمن أصبحت المواقف المضـادة للبرجوازيـة والمرافقة للحركة الحديثة النقطة التي يلتقي فيها الموالون للحركة الحديثة ، ثم للفئة المتعلمة من الطبقة الوسطى في أواسط الستينات ·

لقد بدى في بعض اللحظات أن من المستحيل العثور على رواية جديدة لتجدد تفوق مؤلفها ألا نجازي أو الخارق

على العالم الذي يعيش فيه ، كما ان بيت القصيد في هذه الرواية هو ابراز هذا العالم كعالم ذي ضحالة واثارة أقل مما يتوقعه أو يراه الناس أو جمهور الكاتب أصلا .

نعم قد يكون هذا شيئا حسنا للسياسة الراديكالية ، ولكنه سيىء للحركة الادبية الحديثة .

لم يرافق استنفاد أو تآكل الحركة الادبية الحديثة اعادة الحياة للواقعية ، ففي الوقت الذي كان يشكو فيه لزلي فدلر من انحدار الكتاب الطليعيين ، كان (ليونيل تريلنغ) يسجل شكوى أخرى لا تتعلق بمسألة الشكل أو المحتوى ، ففي رأي تريلنغ أن الادب استسلم طوعا وتنازل عما كان يعبر من أهم وظائفه الاساسية ، وهي وظيفة التحري والنقد للقيم والاخلاق . لقد رثيت للدرجة التي وصلت اليه الرواية في تخليها عن دورها القديم ولقيامها بعرض أنباء علينا لا نألفها . وأحدث من رثائي هذا وأكثر عنفا منه ما قاله (ثوم ولف ..) « في الستينات وفي الوقت الذي وصلت فيه الى نيويورك ، هجر الكتاب أغنى حقول الرواية ، وعلى وجه التحديد المجتمع أو اللوحة الاجتماعية والقيم والاخلاق والطريقة التي نعيشها اليوم » .

بدائل الرواية :

ان الذي نرثيه كلنا هو الرواية الواقعية ، ذلك انها ماتت وتسابق كل منا ليرشح خلفا لها في القيام باستقصاء ونقد القيم والاخلاق والسلوك ، والاتيان بأنباء عن الطريقة التي نعيشها الآن ، فتريلنغ وقد تأثر برواية ديفد رزمن « الجمهور المنعزل » يرشح علم الاجتماع كبديل ، بينما رشحت أنا وآخرون مثلي المقالات والتحقيقات الصحفية التي تهتم بكل شيء كبديل للرواية ، بعدما رأينا أن المقال والتحقيق يحتلان مركز الرواية التي استسلمت دون قيد أو شرط . اما ولف وأمثاله ، فقد رشحوا الصحافة الجديدة كبديل أو كوريث شرعي للروايات التقليدية العظيمة ذات الطابع الواقعي .

والآن فاني أعتقد أن كلامنا كان مصيبا في شكواه من الادب الحديث الحالي ، ولكنه كان مخطئا في اختياره البديل أو الوريث ، فتريلنغ كان مخطئا في اختياره علم الاجتماع، لأن علم الاجتماع يقدم لنا القليل القليل من حياتنا بدلا من يقدم لنا أكثر وأكثر ، بالاضافة الى أن ما يقدمه لنا علم الاجتماع معروف لدينا أصلا . أما أنا فقد كنت مخطئا في اختياري للتحقيقات كوريث للرواية ، لانه تبين لي أن هذه المقالات منغمسة الى أذنيها وعلى نحو متزايد في التحريض السياسي والمواعظ الاخلاقية بدلا من انغماسها طولا وعرضا وعمقا في الاستقصاء ، والنقد والتصدي للقيم والاخلاق والاعراف السائدة ، كما كان ولف مخطئا في اختياره الصحافة ، لأنه تبين في ما بعد أن الصحافة الجديدة قلدت أو حذت حذو الكتاب الجدد المماثلين لها في النرجسية وفي استغلال كل موضوع أو فرصة لاظهار شخصيتها ، بهدف توكيد تفوقها على العالم ، وذلك كله بدلا من العمل - بروح بلزاك - كمؤسسة اجتماعية .

اذن ، فقد شاهدت الخمسين سنة الماضية حلول الحركة الادبية الحديثة محل الواقعية ، ثم احتراق هذه الحركة بنار النزوات الحديثة ، والبحث المستميت عن شكل جديد للادب يلبي الطموح القديم للادب بكل ما فيه من غنى وتفصيل وعلى نحو يظهر العالم كما هو بالفعل وبحيث يدفع الانسان الى تجديده وتنشيطه .

في ضوء هذه التجربة ماذا تخبىء لنا السنوات الخمسون القادمة ، أو ماذا نتوقع منها ؟

بديهي أنه لا توجد طريقة تجعلنا نعرف بالضبط ما سيأتي ، ولكنني أضمن ، أو حسب اجتهادي ، أتوقع عودة أدب الخيال ثانية كوسيلة لارواء ظمئنا الدائم لكشف حياتنا وبيان الذي يرضينا ويشبعنا . انني أعتقد بأن ذلك سيحدث لأن منطلق التاريخ الادبي يشير اليه ، ولا بديل للادب عن هذه العودة الا ، التوجه نحو القبر ، وفي اعتقادي أن الادب سيختار العودة الى أصله ولن يختار الذهاب الى القبر ، لا لأني أعتقد بأن قضية عدم وجود مستقبل للادب ضعيفة أو خاسرة فحسب ، بل لأنه من المستحيل تصور عالم تعجز فيه الكلمات عن الاضاءة ، وتتوقف فيه القصة عن الكلام .

الأدب العربي في بلاطات المشرق

لعل خير ما يبرز في القـرن الخامس الهجري حسن حظ الادب العربي ، ذلك أن وضع الادب لم يتبع وضـع السياسة في اضطرابه وانشقاقه كثيرا ، ولـم ينجر الى تلك الحركات السياسية المظلمة ، بل ظـل رائجا ومتـداولا ومنتشرا حتى سقوط بغداد ٠

انما كان حظ بغداد هو الحظ السيء ، ذلك أنهـا منذ أن خسرت نفوذها السياسي بالتدخـل اجنبي خسرت معه نفوذها الادبي أيضا ٠ الا أن هذه الخسارة لم تكن غير رواج الادب بشكل أوسع ، وغير انتشار للادب انتشـارا أكثر ٠ فقد كانت القصور كلها تأتم بنهج بغداد ، وتسترشد بمساعيها الادبية ٠ والحق أن ما قامت به سائر القصـور انما كان مبعثها الغيرة من بغداد ـ على ضعفها ـ والرغبة في تقليدها ، والسعي لمنافستها ٠

وأهم ما كان الامراء يتنافسون عليه هو جلب الادباء وتعضيد العلماء ، وتشييد المدارس ، وانشـاء المكاتب ، وتجهيز المكتبات ٠ ولهذا فقد ظل الادب رائجا مرغوبا فيه

د. محمد التونجي

يميل اليه الامراء ، ويتسابقون الى كسب رضى كل أديب لامع ، مهما كان أصله وعرقه .

ومنذ أن خفق العلم الابيض على قباب القاهرة وقصورها في القرن الرابع ، عين هدفه ضد منافسه العلم الاسود الخفاق على ضفاف دجلة وأسوار عاصمة العباسيين .

لذلك فان هذه المرحلة مرحلة ازدهار للادب بالنسبة للوضع السياسي في قصور الحمدانيين ، وازدهار للادب في قصور الفاطميين ، وازدهار للادب أيضا في قصور الغزنويين والسلجوقيين ، وكانت كل عاصمة من عواصمهم بمثابة قبلة للادب والعلم ، يفد عليها روادها ، وينهلون من معينها الثر .

واذا كان الادب العربي في غرب العراق أنقى من الادب في شرقه ، فلن ننسى طبعا أن أهل الغرب عرب ، وأن أهل الشرق عشاق للعرب وللعربية . واذا كان للامراء العرب فضل على تشجيع الادباء ، فان الفضل الاكبر يعود الى الذين لم يكونوا عربا ، وأكاد أقول لا يعرفون العربية جيدا . ويشجعون الادباء والشعراء والعلماء على التأليف باللغة العربية ، والنظم بها . والاسماء التي نراها منثورة في بعض المجموعات الادبية كيتيمة الدهر ودمية القصر و .. خير دليل على ازدهار الادب العربي في تلك الاصقاع ، مهما قلنا ـ وقالوا ـ في ضعفها وركاكتها .

وسنتوقف في بعض البلاطات متعمدين ألا تكون بلاطات عربية صرفة ، لشهرة الادباء فيها ، ولمعرفة النهضة التي حظي الادب فيها كبلاط آل حمدان ، وبلاط الفاطميين وبلاط بغداد . انما سننتقل بين البلاطات البعيدة ، والتي عمل أمراؤها على تشجيع الادب .

كان الامراء الفرس (في بعض الاحيان) يحثون الادباء على الكتابة بالعربية ، ويقبلون عليها بأنفسهم ، ويتعلمونها ، ويقدرون علماءها حق قدرهم . فقد حكى المقدسي أن الطاهريين أحسن الملوك سيرة ونظرا واجلالا للعلم وأهله . فمن رسومهم أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الارض بين أيديهم .

واذا تابعنا رحلة المقدسي بين البلاطات وجدنا الامراء السامانيين الفرس يولون العلم والعلماء الولاء التام . والحق أن نهضة أدبية عربية وفارسية حصلت في زمانهم . حيث لمع أدباء فرس عظام ، وعشرات من الادباء ذوي اللسانين الذين ينظمون (أو يكتبون) باللغتين . ومن ينظم بالعربية فأحر به أن يتكلمها بطلاقة ، ويعرف أن الشعب يفهم عليه ما يقول . حتى ان بعض أمرائهم كانوا يجيدون العربية الى جانب الفارسية ، كالامير منصور بن نوح الساماني الذي حكم من ٣٨٧ هـ ـ ٣٨٩ .

وكذا الامر في الدولة الزيارية ، التي اشتهر أميرها شمس المعالي قابوس ابن وشمكير الزياري ٣٦٦ هـ بشعره ونثره ، ورسائله العربية التي تنبىء عن حسن احاطته باللغة العربية وقد أورد الثعالبي في يتيمته بعضا من شعره ومن نثره .

واذا انتقلنا الى بلاط الاتراك ، وجدنا في الدولة « الايلكخانية » ميلا كاملا الى اللغة الفارسية . فقد حدثتنا كتب الادب عن ميلهم الى الشعر ، وتقديرهم للشاعر . كما قرض بعض الامراء الشعر العربي . ومن بين هؤلاء الخانات الامير « علي بوري تكين » الذي يعتبره صاحب « ترجمان البلاغة » من شعراء القرن الخامس . فلا عجب اذا أن تزخر قصورهم بالعديد من الشعراء الفرس كالوطواط وعبد الواسع الجبلي والانوري والعوفي . وأن يظفر الادباء بالتشجيع حيث ألفوا لتلك البلاطات الكثير من الكتب .

وليس ببعيد أن تكون العربية ذات حظ كبير في بلاطات هذه الاسرة ، فقد كانوا يدينون بالاسلام . ويتبع الاسلام عادة شغف بالعربية من غير العرب . كما أن عددا من الشعراء الفرس ، الذين مدحوهم ، وعاشوا في قصورهم كانوا على علم بالعربية . بل ان الباخرزي صاحب « دمية القصر » ، والثعالبي أيضا اللذين جالا في تلك الاصقاع ، ونقلا عن عدد من رواتهم أشعار شعرائهم ، يبرهن بكل تأكيد على انتشار اللغة العربية . غير أن الواجب يحدونا لان نشير الى أن الفارسية كانت صاحبة قصب السبق . ثم انها هي صاحبة الفضل في نشر العربية هناك .

ويحيجنا وضع الغزنويين المهم الى الوقوف أكثر في بلاطهم ، ولدى أمرائهم • فالاموال الكثيرة التي غنمها السلطان محمود عملت على ايجاد نهضة أدبية وفكرية ، وازدهار مادي عظيم في سائر المناطق التي سيطر عليها • ولا شك أن بلاط محمود وابنه مسعود في « غزنة » غدا من المراكز الثقافية اللامعة في العالم الاسلامي آنئذ • بل ان قصرهما ضم خيرة شعراء الفرس وكتابهم أمثال : العنصري، العسجدي ، منوجهري ، البيروني •

والبيروني هذا هو صاحب العلوم المختلفة ، والذي خص الامير مسعودا برسالته الفلكية ، والتي اسماها « قانون المسعودي » •

وكذلك الفردوسي صاحب الشاهنامة ، والثعالبي ، والباخرزي • ودواوينهم وكتبهم زاخرة بمدح هذين الاميرين ، عربية وفارسية •

ويصف ابن الاثير عصر محمود ، فيقول انه صنفت له كثير من الكتب في فنون العلم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد • وكان يكرمهم ، ويقبل عليهم ، ويحسن اليهم • وبذلك وصف ابنه مسعودا أيضا • ولكن العلماء الغربيين يرجعون رغبة محمود الجامحة في جمع العديد من الادباء والعلماء في بلاطه الى حرصه على الاستئثار بهم ، لتتألق شهرته بهم • ويعتبره « براون » في هذا الحرص خاطفا لرجال الادب والفن ، تباهيا بهم وبانتاجهم • ولا مانع عنده من أن يضم الادباء الذين يلقاهم أثناء فتوحه الى بلاطه بالقوة اذا لزم الامر •

كما أن عددا آخر من المستشرقين أمثال « أوغست موللر » و « بارتولد » يعتبرون هذا الحرص نافعا للنهضة الادبية على أية حال • فقد جمع من أجلهم أفضل الكتب في قصره بغزنة •• وأغدق ابنه على هؤلاء الادباء في احتفالات الخريف « مهرجان » الكثير •

أما الرأي الاخير في تشجيع الامير محمود للادباء والعلماء ، فهو رأي المعجبين به (وخاصة العلماء الهنود منهم) • فقد عدوه حاميا للاداب ، سخيا على أصحابها ، وما هذه النهضة الادبية للفارسية والعربية في الشرق ، الا من عنايته ورعايته •

ولم يكن حرصه على جمع الادباء ، على ما يعلم المؤرخون ، ناجما عن جهل ، فان ثقافته الاولى عرفته بضرورة رعاية هذه الطبقة ، اذا أراد لاسمه الخلود • فتحدثنا الكتب التي اهتمت بحياة محمود الاولى أنه درس علومه على علامة كبير هو القاضي أبو نصر الذي كان اماما لابيه « سبكتكين » ، فحفظه القرآن ، ورعاه رعاية أدبية ودينية في أيام نشأته • غير أن انشغال محمود في ادارة الشؤون العسكرية والعامة حرمته من التفرغ التام لهذه العلوم •

ويقال ان محمودا تعلم العربية جيدا ، مع أنه كان يكرهها • أما معرفته للفارسية فكانت كافية • ودليل المؤرخين على ذلك تشاوره مع وزرائه الفرس بلغتهم •

واذا حرم محمود من متعة الدراسة الوافية في أيام نشأته ، فانه لم يحرم أبناءه واخوته منها • فيحكي البيهقي أنه أعد لتثقيفهم خيرة المعلمين • ولم يبلغ ابنه مسعود سن الرابعة عشرة حتى كان على اطلاع جيد على بعض الامور الدينية والادبية •

أما معرفة مسعود للفارسية فكانت أوسع من معرفة أبيه • لانه كان يكتب بعض الرسائل الجيدة الاسلوب بخط يده ، كما كان قادرا على المحادثة والكتابة باللغة العربية • فقد كان يستقبل وفود الخليفة بنفسه • ويخاطبونه بالعربية ، ويجيبهم بها • بالاضافة الى لغتهم التركية الاصلية • التي كانوا يخاطبون بها جنودهم ، أو يتبادلون بها الاحاديث فيما بينهم •

وظلت عناية الامراء بجمع الادباء في بلاطات الغزنويين موجودة • أما اللغة العربية ، فكان حظهم بها يضعف كلما ابتعدوا عن البلاد العربية والفارسية وتغلغلوا في شبه جزيرة الهند •

ونفاجأ اذا ما نظرنا الى الامراء السلاجقة الاوائل • ذلك أنهم كانوا على جهل مطبق عكس ما كان عليه الامراء الغزنويون الاوائل • ويتبع هذا الجهل بالتالي قلة عناية بالادباء والعلماء • لذلك فاننا سنصادف في زمان السلاجقة أن الوزراء الفرس هم الذين يرعون هؤلاء الادباء للجهل الذي أشرنا اليه • ولانهم كانوا مشغولين في تجوالهم الحربي وفتوحاتهم الواسعة •

ولا بأس من وقفة عجلى بين رداه بلاط نظام الملك الذي حكم الامبراطورية السلجوقية من وراء أباطرتها ، مدة ثلاثين سنة • لم يغفل فيها عن خدمة أهل العلم والادب لنرى ماذا فعل هذا الوزير في النواحي الادبية مغفلين فضله في النواحي السياسية والادارية لانها تخرج عن نطاق بحثنا •

تحكي كتب التاريخ والادب ، مما ترجمت له أنه كان متعلقا بأهل العلم والادب والدين أشد التعلق • وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والصوفيين ، وأن دواوينه يؤمها الادباء وذوو المعرفة ، كما كان كثير الانعام عليهم • فلا غرابة اذا رأينا الشعراء ينظمون في مديحه ، والادباء يؤلفون اعترافا بفضله •

ولم يكن نظام الملك بعيدا عن المجال الادبي نفسه • فقد كان في بادىء أمره كاتبا في الدواوين • وله محاولات شعرية ونثرية • ومن أهم الصفات التي أغدق عليه الادباء عنايته بهم وبأدبهم ، وفتحه المدارس ، وسعيه لشهرتهم ، وحدبه عليهم ، وبطولته الحربية • وحسن ادارته في الحكم واغداقه الزائد على المشتغلين بالعلوم ، وملؤه الخزائن بالكتب النفيسة ليسهل أعمالهم •

واذا أهمل السلاطين الاوائل الثقافة ، تاركين أمرها لوزرائهم ، فان « ألب أرسلان » ومن جاء بعده حققوا للادب والعلم ازدهارا واسعا ، وحموا الادباء حماية تامة • حتى جعلوا أسرتهم (السلجوقية) أهم الاسر التركية التي أثرت على التمدن في الشرق • ومما يحكى عن ألب أرسلان ميله الحقيقي الى صحبة المثقفين والفنيين ، وسماع الاخبار منهم •

ولقد برز في عصرهم كثير من الادباء الفرس والادباء العرب والادباء ذوي اللسانين أمثال الشعراء : فخر الدين الجرجاني وناصر خسرو وعمر الخيام وفريد الدين العطار وأمثال الادباء والعلماء : الغزالي والرازي والجويني والثعالبي والباخرزي •

والذي دفع هذه الجموع الغفيرة الى تعلم العربية والاجادة بها وقرض الشعر أو نثر النثر العربيين رغبتهم في ورود الدوائر الديوانية • فمن شرائط بعض الوظائف حسن الخط وكثرة الحفظ والبراعة بالكتابة العربية •

هذا الحرص الشديد من قبل الملوك والوزراء ، وهذا الولع الزائد من قبل أهل العلم جعل اللغة العربية يتوسع نطاقها ، لتخرج من البلاطات وتدخل صفوف الشعب في المشرق لتكون لنفسها أساسا ثابتا وجذورا لا يمكن قلعها •

واذا وجدنا أن الفارسية تأثرت بالعربية في القرن الاول ، فتحولت أبجديتها الفارسية (البهلوية) الى أبجدية عربية فيما بعد ، فان اللغة التركية اتخذت الابجدية العربية أداة للتعبير والكتابة بعد عدة قرون ، وذلك عن طريق الفارسية •

هذا الاصطراع الشديد بين اللغات الثلاثة : العربية والفارسية والتركية في المشرق أخرج لغة جديدة مزيجا منها كلها استرجعها أهل الهند وتحدثوا بها وكتبوا ، وسميت فيما بعد باسم « الاردية » ، أي لغة العسكر ، على اعتبار أن كلمة « أوردو » بالفارسية تعني المعسكر •

كل هذا التوسع للعربية ولابجديتها في الشرق اليوم ، كان سببها تلك البلاطات التي اعتنت بالادباء والشعراء منذ ألف سنة تقريبا •

محمد التونجي

ما أسهل القتل

روكس بن زائد العزيزي

ـ قال محدثي ـ « كانت الساعة الحادية عشرة ليلا ، واذا بالحارس يقرع الباب بعنـــف . فتحت الباب واذا بالرجل يرتجف ، ويتواقع علي متوسلا ان اعيره مسدسي .. قلت ـ

ـ ما تصنع بالمسدس ؟

ـ ادافع به عن نفسي ، لانني أخشى القتل .

هذا ما اجابني به الحارس

ابتسمت وقلت ـ « أتظن القتل سهلا الى هذا الحد ؟»

اجاب الرجل باضطراب عميق ..

القتل ، وأي شيء اسهل من القتل يا سيدي ؟ والى أي شيء يحتاج القتل ؟ ساعة غفلة ، حماقة لحظة ، كافية للقتل . اسمع لاخبرك قصتي ـ كنت في السابعة عشرة من عمري يوم احببت ابنة عم لي في مثل عمري كنت اراهـا فاشعر بان قلبي يضطرب في حنايا ضلوعي ووجهي يحمر ، ولساني يتلعثم ، وكانت تغيب فلا ارى الا خيالها ، ولا افكر الا فيها كانما الدنيا كلها قد تقمصت في شخصها ، او كانما هي نفسها قد اصبحت الدنيا باسرها .

اراها في خيالي باسمة فافرح وابتسم ، واتوهم ان الدنيا كلها سهلها وجبالها قد ابتسمت لي . واتخيل انها عبست ، فأشعر بان الدنيا كلها قد تجهمت ، وعبست في وجهي . احاول ان ابعد خيالها عن فكري بالنوم ، فـــلا انام الا اذا تصورت ان اناملي تداعب شعرها الذي يكاد يلامس الارض بجدايله السود . كل مكان وقفت فيه اجده حبيبا الى نفسي عالقا بقلبي ، احببت كل شيء احبته ، من اجلها ، وكرهت كل الذي كرهته وكنت اتخيل انها لـــو كرهتني لكرهت نفسي ، لعلمي انها لو فعلت ذلك لسلبت حياتي كل معنى من معانيها ..

يوم كنت امر في الحي واراها اشعر بان نساء الحي قد اضمحل وجودهن ، كانهن غصن في قبـــور ، وطمس وجودهن ، وكانها قد انتصبت تمثالا من الفتنة والجمال يسير ما بين الارض والسماء فلا أبصر سواها ولا اشعر بوجود غيرها .

اذا غابت فكرت في كيفية لقائها ، وفيما يجب علي ان اصنع ، وما يجب ان اقول ، فاذا حضرت جف الكلام على شفتي ، وغاب مني كل فكر ، ونسيت كل كلام ، ولم اعد

اسمع سوى دقات قلبي ، ولا احس الا باندفاع الـــدم في كل خلية من خلايا جسمي يعنف ، وباحتقان في وجنتي• واذا غابت لمت نفسي على اني نسيت كل ما قدرت انـي أريد أن أقول لها ، وابوح به عند لقائها • استغفر الله يا اخي ، ان كل ما وصفت لك لم يكن سوى عرض ممـا كنت أحس به نحو تلك الفتاة • اذ لم يكن من جمـال الاجمالها في رايي ، وقد كنت اتوهم ان لا حياة لي بدونها، وان الدنيا لا تستحق ان توجد لولاها ، وان الحياةلاتستحق ان تعاش اذا خلت منها ، وكنت اشعر يوم القاها انـي اعظم من كل الرجال واسعد من كل بني آدم • ويوم كانت تضع يدها في يدي كنت احس بنشوة دونها نشوة المدمنين على الخمر اذا شربوا • لذا حرصت عـلى ذاك الرسيس الذي يكاد يحرق شغاف قلبي • ورأيت انه الموت والحياة، وانه السعادة والشقاء ، وانه الضحك والبكاء ••

كان هذا موقفي من الحياة ومن نفسي ، وفي احد الايام سمعت فتاتي تقول انه يجب علي ان اسعى للحصول على المال الذي يرضى شح والدها ونهمه • فصح عزمـي على ان انخرط سلك الجندية ، وقد فعلت • لقد اقسمت لها ان لا اعود الى قريتي الا ومعي المال الكافي لمطاليـب ابيها • وعرف الناس قاصيهم ودانيهم قصتنا • ومضت الايام ودقائقها تحرق قلبي ، وتحول دمي رمادا في عروقي شوقا اليها • لكني كنت استعذب كل عذاب ، لانه السبيل الى الحصول عليها • وتحولت مخلوقا غريبا • اقترت عـلى نفسي في النفقة ، وعبدت في حياتي صنمين ـ فتاتي تلك ، والمال ، لانه السبيل اليها •

ثلاث سنوات مرت وانا اجمع رواتبي الى ان اصبحت اعد من الاثرياء بالنسبة الى مفهوم الثروة في قريتي •

وفي عطلة عيد من الاعياد مررت بالمدينة ، فاشتريت جهاز العرس للتي احبها ، وركبت مع الراكبين في السيارة، وكنت اشعر ببطء سيرها • ولعلك تضحك اذا قلت لك أن نفسي راودتني مرارا ان اترك السيارة التي تعطلت عطلا بسيطا طارئا ، واقطع المسافة سيرا على قدمي • وفجأة تنبهت ان عملي حماقة •

وصلت الى قريتي في حدود الساعة الثانية بعد الظهر وكانت النساء قد عدن وقد استقين الماء من الابار • منهن من حملت قربتها على ظهرها ، ومنهن من حملتها على حمار لها • وكان كثير من النساء ينسجن بسطهن المزخرفـة المرقومة ، وهن يتحدثن احاديث مختلفة ، تتناول كـل موضوع في القرية • وكان هنالك جماعات من النسـاء يغزلن منطلقات على سجيتهن بلا تحفظ ، وقد كشفن عن سيقانهن تسهيلا لحركة المغازل • وعشاب المزروعات عادوا باحمال العشب لمواشيهم ، والرجال قد تبطحوا كلهم على الارض يلعبون الالعاب التي الفتها ومارستها في طفولتي • لكن ، لشد ما كانت دهشتي يوم سمعت بعض العجائز وانا مار يذكرن اسم امي بحزن مشفوع بالتنهد ، والشبـان يستقبلونني بابتسامات مثقلة بالهزء والسخرية ، عـلى نقيض ما كان القوم يستقبلون المتجندين الغائبين من ابناء قريتي • سخطت ياسيدي ، وثار الدم في عروقي ، ولمح احد رفاقي القدامى الثوب الذي احضرته للعروس ، فابتسم قائلا ـ « فصل الثوب والبسه اشرف لك » •

اسرعت الى الدار فرأيت رعاة يوردون أغنامهـم ارسالا ، فهزوا رؤوسهم يوم رأوني • ادركت حالا ان امرا يخصني قد حدث • فدخلت الدار ، وقبلت يد امي بلهفة وقبلتني بحنان الام التي تعيش من اجل ابنها ، وبل دمعها خدي • لقد قالت لي ان يوم موت والدي كان اخف وقعا على قلبها من اليوم الذي فجعوني فيه بالتي احبها •

لم اتكلم بعد ذلك لان الكلام جمد في حنجرتي ،خلعت ثيابي ولبست مدرقة امي فتلك الثوب الـذي تلبسـه القرويات والبدويات عند العمل واقسمت بالله ان لا اخلعها الا بعد ان انحر الذي انتزع حبيبتي مني ، او اقطع كبده برصاصة من بندقيتي • كان هذا القسم على مسمع مـن امي • كم بكت وتوسلت ان انسى الفتاة وانسى الرجل

الذي تزوجها ، لانه أب لثلاث بنات صغيرات ولطفل صغير • توسلت الى ان انسى عمي المجرم الاساسي في القضية ، لكن كيف انسى او اتناسى ، وقد وصفت لك موقفي وحبي ••

حقا يا سيدي اني انا نفسي لم اكن لاتصور ان القتل سهل جدا • سمعت غريمي يطلب من جار له مسدسا عارية ، لانه يشعر بان حياته في خطر • استعار المسدس وحشاه بالطلقات وانا ارى ، وانصرف الى داره القروية المؤلفة من ثلاث قناطر ، يحيط بها حوش واسع تزيد مساحته على الدنم • فيه فرسه الصقلاوية ، وابقاره وغنمه ، وجمل وحمار • وبين مذاود البقر انطويت بمدرقة امي ، وعباءة والدي السوداء • وكانت بارودتي الانكليزية القصيرة محشوة بالعيارات النارية ، وشبريتي - خنجري الصغير - الهوشانية الدقيقة الى جنبي • ورأيت غريمي يضع المسدس تحت وسادته ، وكان اقاربه قد بكروا في السهرة عنده ، لانه لم يمض على زواجه سوى خمس ليالي هي ليالي الحشمة في ديارنا •

سمعته يطلب من العروس ان تضع شايا للزوار ، ورأيتها تصعد ، وتقدمه لهم بعد ان وضعت السكر عليه رأسا • ولشدة دهشتي سمعت غريمي ينادي العروس باسمها طالبا منها ان تضع سكرا على الشاي • فضحك الجميع وقالوا - « السكر زائد عن المقادير اللازم » • فصاح قائلا - « لا تهزأوا بي ، ان الشاي مر كالعلقم » • فضحكوا منه ثانية وقالوا - « أنت تريد ان تسقينا دبسا او تقتلنا بالحلو ، فسمعته يقول - « العلقم اخف مرارة من هذا الشاي » •

حقا لقد كنت في معركة مع نفسي ، كنت ارجف وانا ارى حركاتهم •• وأرى التي احبها تصنع الشاي لهذا الكهل ، ويضمها هي وغريمي منزل واحد ••• هل نسيت كل ما كان بيننا ؟ انا لا اصدق ذلك ، لقد قالت لي امي انهم ارغموها ، لكن لماذا لا تثور على التقاليد ، لماذا لا تثور على ارادة ابيها ، ان البدويات افضل منها • اولئك عرفن طعم الحرية فلا تتزوج احداهن الا برضاها ، اما القروية فتباع احيانا كما تباع الدابة ، يا للعار ••

لقد خطر ببالي ان اوزع رصاصات بندقيتي على كل من في الدار ، وخطر ببالي ان تكون الرصاصة الاولى في قلب التي احببتها ، اذ ان اعصابي لم تعد تحتمل هذه التجربة القاسية ، وكاد اصبعي يضغط زناد البندقية ، لكنني شعرت بان يدي قد تجمدت في اللحظة الاخيرة ، لان كل احاديث الحب التي دارت بيننا مرت في مخيلتي في طرفة عين • خشيت ان يراني احد فتفسد خطتي وفي كل لحظة كنت اشعر بانني ازداد تصميما على الانتقام ، وكنت اعد الثواني لاتمكن من اطفاء نار الحقد والانتقام التي تتأجج في صدري •

شرب القوم الشاي ، وخرجوا من البيت من غير ان يشعر احد منهم بوجودي ، فقد كان انطوائي في العتمة محكما • وتبعهتم العروس حبيبتي الراضية بالعبودية لاغلاق باب الحوش ، ولما عادت تريد اغلاق باب الدار ، سألها غريمي هل قيدت الفرس ؟ قالت بل نسيت ، فطلب منها ان تقيد الفرس ، وعند مرورها لامس ثوبها جسمي فاحسست بانني اريد ان انقض عليها ، لكنني شعرت بان حقدي يطغي على كل عاطفة ، وشعرت بان عزتي ورجولتي قد اذلتا اشنع اذلال ••

لم اعد انسانا ، لقد كنت في تلك اللحظة وحشا ، واشد ضراوة من الوحش •• فما ان قيدت الفرس ، ودخلت الدار ، واغلقت الباب ، وآوت الى فراشها ، حتى قفزت من النافذة المفتوحة ، وعلى ضوء السراج الخافت قلت لغريمي - « انطح من دون روحك • اي دافع عن نفسك فانا لا اريد ان اغدر بك غدرا » •

لقد كان في استطاعة الرجل ان يمزق قلبي ، لكنه لم يفعل ، لانه لم يصدق ان القتل سهل بهذا المقدار ، ولعله

لم يصدق ان فتى مثلي يقدم على ان يدمر حياة التي احبها، ويحكم باليتم على ثلاث بنات وطفل . لعله لم يصدق ذلك . فالتفت الي بهدوء مشوب بشيء غير قليل من الذعر . صورة ما زالت تطاردني وتصعقني . وقال ونبرات صوته تكاد تختنق ، ولعله كان خائفا من نفسه اكثر من خوفه مني . اجل لقد خاطبني قائلا - « خف من الله لا تقتلني وتقتل نفسك ، وتيتم اطفالي ، دونك هنا الصندوق فان فيه ثلثمائة ليرة عثمانية ذهبا ، خذها حلالا لك ، ويشهد الله اني لن اذكرها لاحد ، فانا غني كما ترى ، وانت في حاجة الى المال ، فخذ هذا المال ، وتزوج من تريد ، واشفق على شبابك ، وعلى هذه الفتاة التي احببتها في احد الايام . اشفق على هؤلاء الصغار اليتامى فلا تجعلهم لطماء بقتلي ، انا اعلم اني اعتديت عليك ، واجرمت بحقك ، واعلم ان الناس تشاءموا يوم زواجنا ، لان العروس سقطت عن الفرس مرتين ، لانها مرغمة ، فلا تصدق تشاؤمهم بقتلي .

لقد رأيت العروس تهب من فراشها مستغيثة صارخة بحقي عليك ارحم الرجل ، ..

لعل المسكينة كانت تعتقد انه بقي لها مكانة في قلبي تحول بيني وبين الانتقام . لعلها توهمت انني لن انفذ تهديدي . ما علمت ان استغاثتها وسقوطها مغمى عليها قد اسقطا البندقية من يدي وزادا في ثورة انتقامي الجنونية . اجل بحركة جنونية لا انكرها كانت شبريتي قد غاصت في نحر الرجل تقد صدره ، وتمزق قلبه ، وعلا هتافي المبحوح الحاقد مختلطا بعويل الصغيرات والطفل الصغير - « غسلت عاري ، وخلعت ثوب الخزية الذي البستني اياه باخذك التي احبها » .

وحملت الفتاة على كتفي ، ووضعتها في بيت خالي ليعنوا بها ، وسلمت نفسي لاول مخفر لقيته .

لقد اخذت كلمات الرجل الاخيرة ترن في اذني ، وصرخات الفتاة التي احببتها واستغاثاتها تمزق كبدي ، واطياف الجريمة تلاحقني ، وتحرمني النوم ، وادركت لاول مرة في حياتي ان كل ما توهمته من حبي لتلك الفتاة لم يكن سوى انانية طاغية فضحها اغتيالي للذي تزوجها ، ورضيت بان تقطع الحياة معه خضوعا لارادة والد غاشم، فدمرت حياتها . وقضيت عليها بان تطوي حياتها عانسا فاقدة كل امل ، لان احدا لا يجرؤ على الدنو منها بعد اليوم، وانا لا اصلح ان اكون زوجها لها بعد ان اصبحت مجرما اثيما ..

قضيت في السجن سنوات كان عذاب ضميري فيها اعنف من عذاب السجن على كل ما لقيت في السجن من اهانة واذلال .. لقد خرجت من السجن بالعفو العام .

والان قبل ان اقرع بابكم كانت ضبع هائلة قد وقفت فوق رأسي ، وكادت تفترسني ، وليتها فعلت ، .. لكني نجوت بأعجوبة ليطول في الحياة عذابي ، انصرفت الضبع عني بعد ان استروحتني مرارا .

وانا الان اخاف ان يمر بي احد البدو ويطمع في هذه الارزاق التي اتولى حراستها .

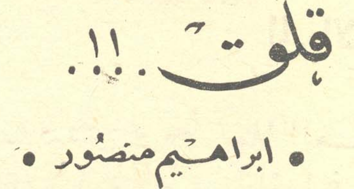
اجل اخاف ان يمر بي احد قطاع الطرق فيقتلني ، لان القتل كما قلت لك ياسيدي من اسهل الامور ، وهو لا يحتاج الى اكثر من لحظة حماقة ، وتصميم ارعن ، وعدم تقدير للمسؤولية ، وقليل من الحقد وحب الامتلاك ..

فاذا رأيتني الان شبحا، أعيش بلا ارادة، وبلا هدف، فلا تلمني ، لاني فقدت انسانيتي من اليوم الذي صممت فيه اذني عن توسلات امي . والفتاة التي توهمت اني احبها ، والرجل الذي قضيت على بناته وابنه ان يعيشوا لطماء .

ان عزائي الاوحد في اوقيانوس عذابي هذا ، ان الله يعذبني في هذه الحياة تكفيرا عن جريمتي التي لا تطهرها توبة ، ولا تغسلها الدموع ..

روكس بن زائد العزيزي
عمان / الاردن





قلق ..!!

• ابراهيم منصور •

مهداة الى الاخ الشاعر
أحمد دحبور ذكرى تعارفنا

انثى تأنق حــرفي من مفاتنهــا ... كما تبرج من جرح الضحى شفق

القيت في صدرها ناري ووا عجبي ... أني بتلك التي ألقيت احتــرق

يطفو على عينها من جمرهــا ألق ... ما كان غير شـموسي ذلك الالق

في كل أفق شراعي راعشــا قلقا ... أمــا مللت شــراعي أيها القلق

مرافئي هزها الاعصار فانتبذت ... ركن المحال لمن يرســو وينطلق

وقلبي الســادن المفتون تنكره ... كل الهيــاكل تقصيه فيلتصق

مل السراب دروبي فالتوى هربا ... من كثر ما احتلبت أعصابه الطرق

نفضت خلف حدود الكون أجنحتي ... لعلني من همـوم النــاس أنعتق





يقظة

أنور الجندي

الى الاستاذ مدحة عكاش



أنت أيقظتني ، فرف نشيدي .. يملأ الخـافقين بالتغـريد ...
لم أيقظتني ، وكنت غريبا ... ضائعا في سباسب ، ونجود ..؟
أقتفي غربة الديار ، وأغري .. كل نجم بخمرتي ، ووعودي ...
وأنا الشاعر الجريح ، أغني .. في ظلام الحياة ، ظلم الوجود ...
هزه العار ، فانتشى غير واع .. وارتمى مثقل الخطا .. بالقيود ..
ولياليه ، دمـدمات فجور .. راعف الناب ، طائش ، عربيد ..

* * *

أنت أيقظتني ، ولست أبالي .. حين أيقظتني ، بكيد الحسود ..
صغرت نفسه ، ومات هوانا .. وتهاوى معفرا بالصـديد ...

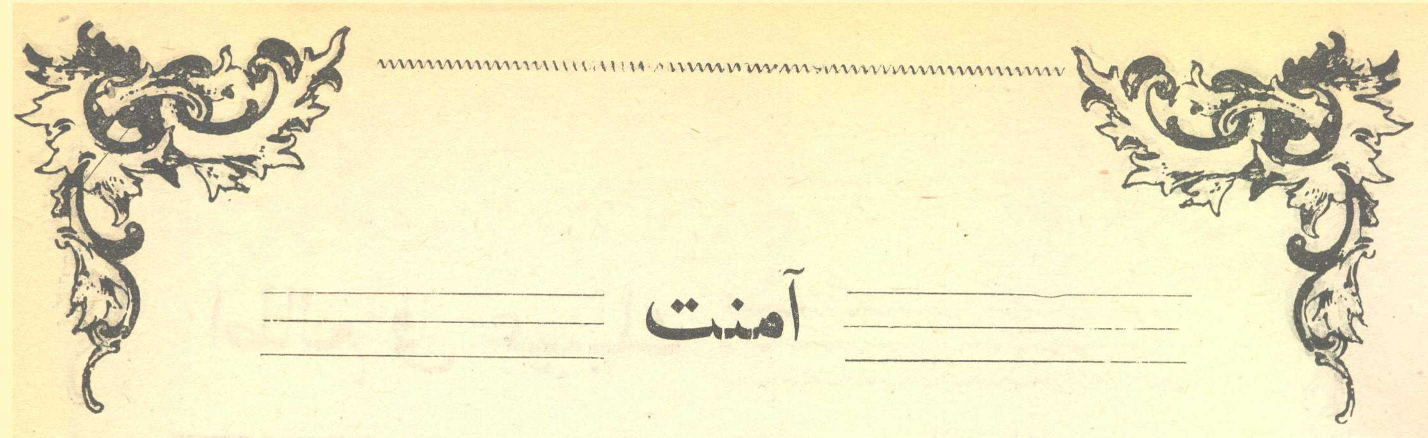
* * *

أنت أيقظتني ، فقل لدعاة السوء ، عودوا لقبركم .. من جديد ..
وتواروا عن العيـون حياء .. أومأ الفجر ، للصباح الوليد ...
هـؤلاء المضيعون أحبـوا ... أن يكون الاديب ، عبد العبيد ..
فليموتوا أسى ، وذلا ، وعارا ... فالغناء الاصيل .. فوق الخلود ..

* * *

أنت أيقظتني ، وأيقظت قلبا .. خامدا ، فاستفاق بعد خمود ..
سأغني هوى ، وشجوا ، وزهوا .. يا أحبابي .. فاطربوا .. لنشيدي





آمنت

محمومة الشفتين لو نطق الدم … لم يعد ما تهـذي به وتتمتم ٠٠
حلي البيان بهـا ونمنم حسنها … ولطالما زان البيان منمنم
آمنت بالظمأ الذي لا يرتوي … وفتنت بالثغر الذي لا يبسم
هو في لماك لبانة منهومة … وعلى شفاهك شهوة تتكلم
مرت بها القبل الظماء كليلة … لم ترتعش شفة ولم يخفق فم
ظلت تحن الى مباهج أمسها … أيام تنعم بالغرام ٠٠ وينعم
أيام كان العمر في آلائه … شفة ترف وقبلة تتلعثم
وهوى يطوف على الكؤوس فتنتشي … ورؤى تمر على الجماد فيحلم
دنيا كما شاء الشباب رحيبة … صخابة ريانة تتبسم
خلقت بها شفتاك معجزة الهوى … متعا اذا سئم الهوى لا تسأم
قد زانها المجهول من أسراره … بمباهج كفتونه لا تهرم
دنيا تصورها طفولة مبسم … كالزهر أعرب عن شذاه البرعم
الفن بدعة وحيها وخيالها … والشعر منحة ما تفيض وتلهم

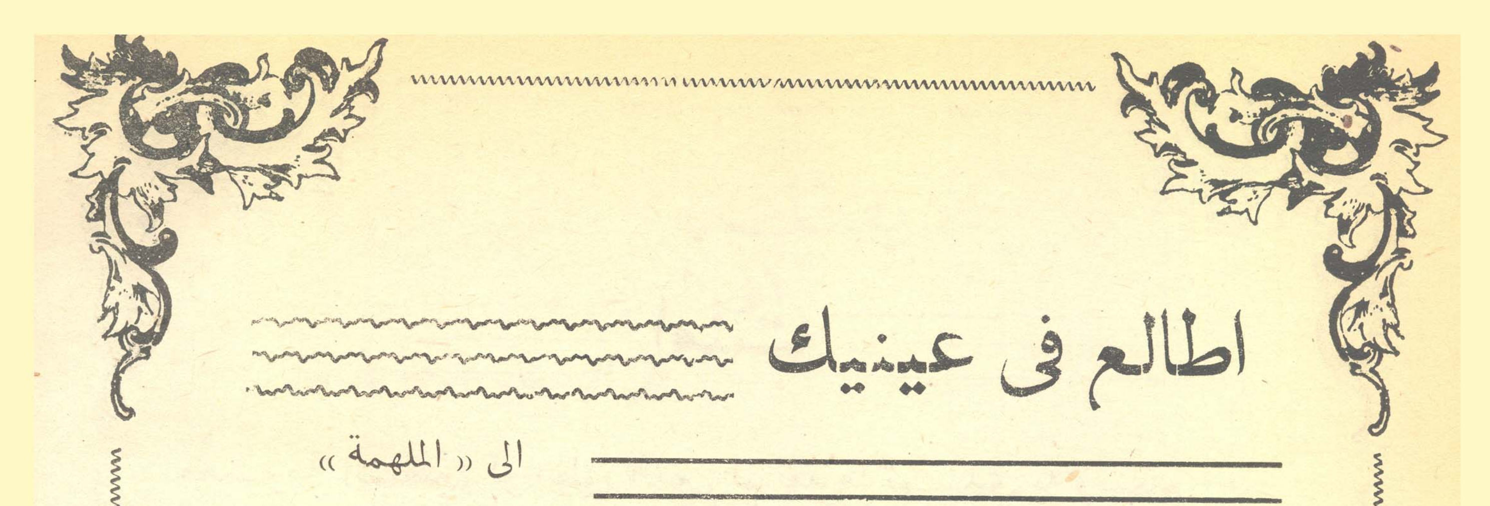
• •

يا فتنتي ، وبكل مسرى قبلة … من أمسي الدامي لظى يتضرم
أضرمت فيها من دمي نار الهوى … ورجعت لا نار لدي ولا دم
قبل كألحان الجحيم مرنة … هوجاء تعصف بالشفاه وتهدم
قد صنتها عن راحم مترفق … ووهبتها لمغامر لا يرحم
راض الشفاه على العنيف المشتهى … نصر الحياة بجامح يستسلم



عبد المطلب الامين





اطالع فى عينيك

الى « الملهمة »

أطالع في عينيك زهـو طماحي ... وميعة أحـلامي وكبـر جماحي
وذكرى شباب مترف عابق الرؤى ... طفـاح بلذات الصبابة ضـاحي
وأقرأ في أهدابهـا السحر صفحة ... كصحوة مخمور وسكرة صـاح
وايماءة عذراء صـوحها الهـوى ... وسرا عـلى الايـام غير مبـاح

• •

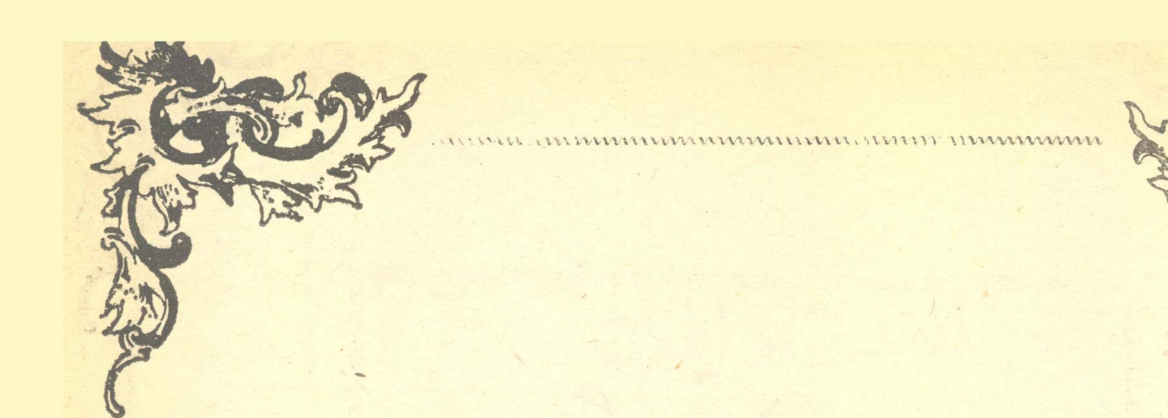
عشقتك والدنيا نشيد بمسمعي ... وفرحة هذا الكون رجع صـداحي
فديتك ما هذا الشحوب الذي أرى ... بقية شوق واحتضـار صباح ؟!
أطلي على الرمـل الظمىء لينتشي ... ويندى بفيض من شـذى ومراح
أطلي ، جنون الحب يعصف في دمي ... ويهتــف في جفني ويعبق راحي

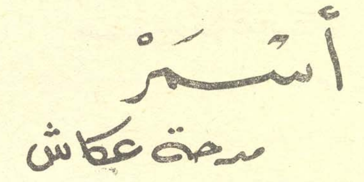
• •

كفرت قديما بالهوى المحض ، غرة ، ... وأودعت أسـراري ثمالة أقداحي
فرحت أبث الليل أصداء وحدتي ... وأحسو قـراح الماء غير قراح
فكنت لي النعمى فآمنت بالهوى ... طهورا كأنفـاس بثغـر أقاحي
فلولاك ما أدركت كنـه حقيقتي ... وقد كان لي من قبل غير متـاح
كأنك مـن فنـي صنيـع غذوته ... عصـارة آلامي وذوب جـراحي
هويتك لحنـا لم توقعه أنمـل ... أردده في غـدوتي ورواحي
وأغنية عـذراء في معبـد الهوى ... عليها من الآثام فضـل وشـاح



دمشق : ناجي مشوح





فدتـك الملاحة يا أسمر ... وغنـت مفاتنـك الاعصر
يرف سناك على مقلتي ... ويخطـر قلبي اذ تخطر
كأني أمرح في جنـة ... اذا لاح لي وجهك الاسمر
فأنعم من حسنه ما أشـاء ... ومـا يرتضي قلبي المقفر
وكم قطعت عليك الطريق ... فـكنت تمر .. ولا تنظر

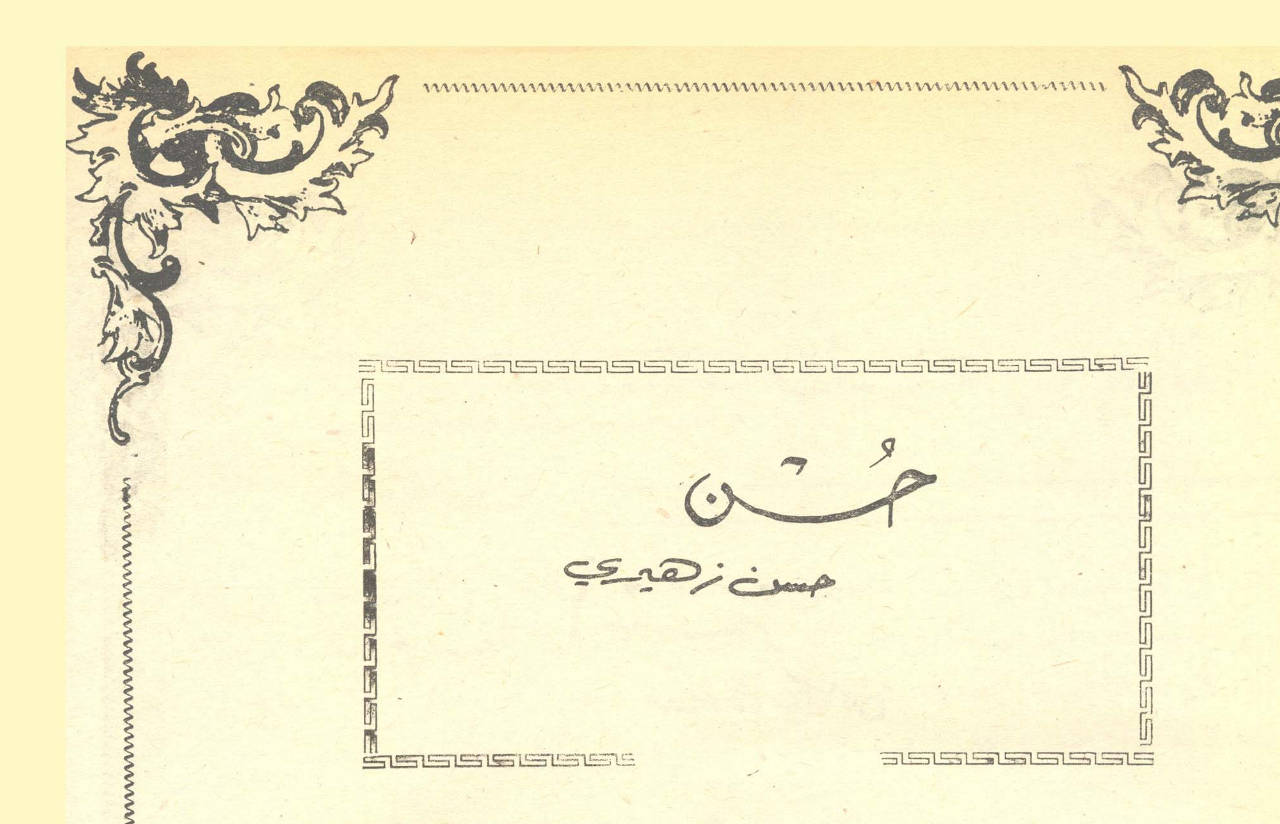
★ ★ ★

تجاهلت يا حلو في ناظري ... غراما يعز ويستكبر
وأغنية صغتهـا في هواك ... وأوحى بها طرفك المسكر

★ ★ ★

أعينك والهدب ؟ أم روضة ... يداعبها ليلهـا المقمر ؟
وجعدة شعرك ـ يا سعدها ـ ... وقد مسها هدبك المشهر
أأومن يا فاتني بالهـوى ... وأنت بهذا الهوى تـكفر
حرام عليك ضنى شاعر ... تعـذب أنت ، ويستغفر
يغني ، ويملأ سمع الزمان : ... فدتـك الملاحة يا أسمر

١٩٤٩



حُسن

حسن زهيري

ما دجا الليل أو تنفس صبح ... في فؤادي من كل حسناء جرح

يسكر الحسن كل لب، ويصحو ... غير لبي فانه ليس يصحو

ايه يا حسن ، لفتة منك نصر ... يزدهيني ، وبسمة منك ، فتح

أنا يا حسن ، ما حببت لأقلى ... مثل غيري ، ولا خططت لامحو

لا أبالي بمن يلح ، ويلحي ... ويحابي ، وغير منحاي ينحو

فكأني وما أبرىء نفسي ... منك ومض ، ومن محياك لمح

لا خبا الحسن في أسارير سمح ... لا ٠٠ ولا انسل في طواياه قبح




القلب والحب

• عبد الله زكريا الأنصاري •

لج بين الضلوع بالخفقان   مذ شجاني من الهوى ما شجاني
يتنزى وجذوة الحب فيه   بلظاها تشب كالنيران
صاعدا نازلا كما الطير محبو   سا يريد الهروب في كل آن
قفص أطبق الحصار عليه   جن فيه من شدة الهيمان
فهو يبغي الخلاص من شدة الضيـ   ـق ويبغي الخلاص مما يعاني
خيمت حوله الهموم جموعا   وتهادت اليه سود الاماني
فغدا خائر القوى واهي العز   م شديد الآلام والاحزان
هده اليأس فانثنى فتهاوى   وتداعى مجللا بالهوان
أيها الخافق المعذب مهلا   وترفق بالعاشق الولهان
أنت أضنيتني وكنت قويا   صادق العزم صادق الايمان
جذوة الحب فيك يا قلب أذكت   جمرات سعيرها في كياني
كيف أرداك سهمه كيف أردا   ك فأسلمتني الى الهذيان

* * *

أيها الحب كيف أصميت قلبي   ولماذا أضعت فيه اتزاني
كيف أصميتني وكنت خليا   كيف أسلمتني الى الطوفان
لست أدري كيف استبد بي الحب   وكيف أستقر في وجداني
كنت في غفوة أعد الليالي   وأعد الايام بله الثواني
أقطع العمر شارد الفكر فيه   ونشيدي أضعته من زمان
بين صحب شم الانوف كرام   يحفظون الوداد للآنسان
أنا ما بينهم عزيز أقضي   ساعة العمر في علو مكان

غارقا في الهموم ناء عن الحب … بعيـــدا عن كاذبـات الاماني
والصحاب الصحاب حولي يلبو … ن ندائي بالعـلم والايمـان
يمحضون الوداد بالصدق بالاخـ … ـلاص بالطهر بالوفا بالامـان
يمحضـــون الوداد من غير من … ويمـــدونني بشتى المعـاني
يمحضون الوداد سـهلا شهيا … طافحا بالحنان والوجـدان
فتراهـــم بيني وخلفي وقــدا … مي وأبصـــارهم الي رواني
في صفوف يلفها الصمت نشوى … حين تبدو تبدو كما الفرسـان
رافعات رؤوســـها زاهيـات … بجميل الاشكال والالوان
وأنا بينهم كمـــا القائد المعلم … يوم القتـــال في الميـــدان
ذاك ألقاه بالتحية والود … وهـــذا بالود والتحنان
نتساقى الافكار طورا وطورا … نتغنى بأعـذب الالحـان
كتـب بالفنـــون والعلم والآ … داب ملأى وبالهـدى والبيـان
ملئت من عصارة الروح والعقـ … ـل وظلت على مدى الازمـــان
خالدات عـلى المدى تتخطى … أبـــدا ما أتى من الحـدثان

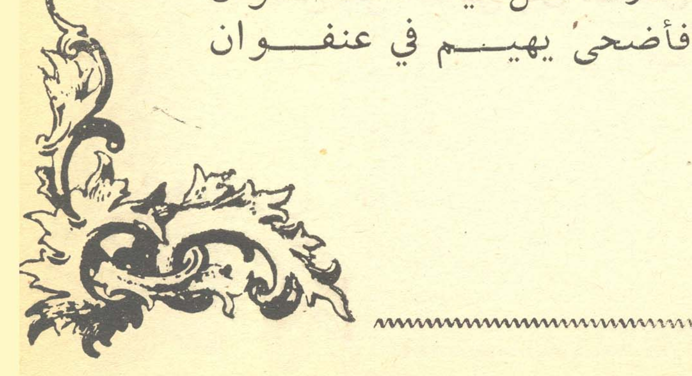
* * *

لســت أدري بأن للحب في قلـ … ـبي دماء تسري وفي شـــرياني
فاذا بي أصحو على وخـزه اللا … ذع من ســـهمه فـكيف رماني
كيف شك الفؤاد كيف رمـــاه … ولمـــاذا تقرحت أجفـــاني
من دموع تسيل مهمـــا تمالكـ … ـت ومهما ثنيـت عنهـا عناني
ولمـــاذا أتى وأي حبيب … صوب السهم في صميم كيـاني
ولمـــاذا يصــــد عني لمـــاذا ؟ … يلتقيني باللـف والدوران
كلمـــا رمت وده لاذ بالصمـ … ـت وألوى جيدا كما الغضبان

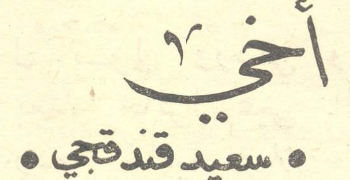
واذا ما أتيتـه ناعم البا ... ل تولى وردني وجفاني
يلهب النار في فؤادي وأغدو ... بعده حائرا عيي اللسان
انه الحب حير العقل حتى ... رده خائبا بلا برهان
هو سر على العقول تسامى ... ما لدينا اليه من سلطان
انه يلهب المشاعر في الشا ... عر حتى يقوده للهوان
حرت فيه حتى غدوت أسيرا ... سابحا في الشقاء والحرمان
فتماديت في الخيال وفي الوهـ ... ـم أغني مرددا ألحاني
والقوافي وأين مني القوافي ... قد تلاشت في سورة الاشجان
ونشيدي الذي تغنيت فيه ... شاديا صادحا قوي الجنان
خر في لجة الشقاء صريعا ... وتلاشى وطار مثل الدخان
شغلتنا الهموم عنه فأضحى ... ذكريات وصار في النسيان
قد بلونا هذا الزمان فعدنا ... نتنادى بذم هذا الزمان
ونعاني من الحياة شجونا ... ونعاني من الهوى ما نعاني

* * *

كتب البؤس والشقاء على العا ... شق حتى أضحى صريع الهوان
سائل الليل والنجوم وصوت الديـ ... ـك فجرا عنه وصوت الاذان
واسأل الفرقدين في هدأة الليـ ... ـل وأنصت يجيبك الفرقدان
« فهما في أوائل الليل نجما ... ن وفي أخرياته شاهدان »
كم أصاخا لعاشق ينفث الآ ... هات من صدره كما البركان
يتلوى والليل ساج ويبدو ... شارد العقل فيه كالسكران
يا له من معذب هده الوجـ ... ـد فأضحى يهيم في عنفوان







أخي

• سعيد قندقجي •

كان أعظم ما يكون الشباب فتوة ونضـــارة
وأروع ما تكون الاخـــوة عطفا وحنانـــــا
وأجمل ما يكون الربيع خصبا وعطـــــاء
وفجأة أصابته سيارة مجرمة وسـائق طائش
فهوى صريعا يتخبط بدمه :

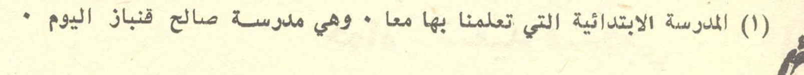
ما شـــاء ربك نافذ قهـــار   انـــا بحـــكم الله لا نختـــار
لكنما أججت فينا حسرة   ما النار ان أضرمتها ما النـــار؟
فوق احتمالي أن يعاجلك الردى   خطفا وتخلو من خطـــاك الدار
اليوم فينا أنت صرح شـــامخ   واليــوم أنــت بلمحة تنهـــار
أتـــكون جنحي للسماء وأرتمي   فاذا بجنحي في الثرى أخبـــار
لا لن أطيق الصحو ، أي فجيعة   نكراء أن يشقى بك التذكـــار
أبك العـــزاء وما تلفت خافقي   الا وأنت سؤاله المحتـــار
اني لابحث عنك أرقب نقـــرة   في البــاب ، ترنو نحوك الابصار
والناس كل الناس بين مصدق   ومكذب وهم بنعشك ســـاروا



وأنـــا وراءك لا فؤادي خافق ... بين الضلوع ولا دمي موار
قد مت فيك وما حملت وانما ... أنا فيك محمول وفيـــك أزار

* * *

كم عاد بي ظمأ الخيال بلا هدى ... فاذا بأيامي الطوال قصـــار
عشنا على ثغر الرضى أنشودة ... غاضت بموتك واختفى السمار
بالامس كنا في «النموذج(١)» عمرنا ... ألق ، ودرب وجودنا معطـــار
نتقاسم الايـــام بين رضية ... سكرى ، وعابسة لها أظفـــار
نبكي ونضحك والطفولة عذبة ... وتغـــار مني يا أخي وأغـــار
أجني عليك وكم عفوت وربمـا ... تجني علي فتعذب الاكـــدار
الموجتان أنا وأنت أفاقتـــا ... والحـب في عمقيهما سيـــار
تأسو جراحي بالحنان وأحتمي ... بك ان عثرت فلا يكون عثـــار
آواه يا جنـح الرضى قد أظلمت ... أيـــام عمري وانتهى المضمار
أفردتني فاذا المناهل مــرة ... بفم الردى واذا الجنان قفـــار
أنى أتجهت رأيت منـك بقيـة ... هي في عيوني نزفهـــا المدرار
الدار والمقهى ومجلسـك الذي ... تأوي اليه وصحبك الاخيـــار
والزوجة الولهى عليك وقلبهـا ... مـــزق اذا ابترد اللظى فأوار
نادتك ضارعة فضاع نداؤها ... لو تستطيع لردت الاحجـــار
وبنوك أفئدة الجراح عليهم ... من صفرة الموت المغير دثـــار
يتطلعون بـكل وجـه علهم ... يلقون وجهك والدمـــوع غزار



(١) المدرسة الابتدائية التي تعلمنا بها معا • وهي مدرسة صالح قنباز اليوم •

كانوا اذا نجحوا رأوك أمامهم قلبا ترف بزهوه الاطيار
واليوم ما معنى النجاح ومالهم منك ابتسام أو لديك فخار
وأبوك وهم الصبر وهو ممزق ما نام ليل أو أفاق نهار
يحيا على جرح انتظارك ضائعا والصمت في أعماقه هدار
يصحو الزمان على شفاه حنينه حرقا لها في جانحيه قرار

* * *

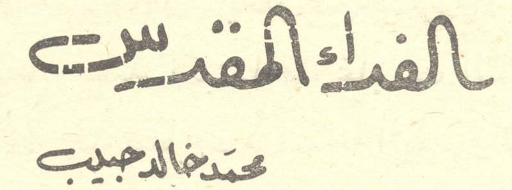
أتموت يا زهو الشباب وينطوي عمر به تتعلق الاعمار
قالوا أصبت ولم يلح في خاطر وجه الردى لكنها الاقدار
لما رأيتك يا ابن أمي نازفا وعليك من دمك الطهور ازار
دارت بي الدنيا وجد بخافقي نزف كنزفك ليس فيه خيار
لله أنفاس يصعدها ... دم وتغيب ثم يردها التيار
حتى لفظت الروح يا بدء الاسى ورحلت فانكشفت بنا الاستار
وتحجرت مقل « آمات » وجردت بين الضلوع صوارم وشفار
يا للفجيعة كيف نلتمس الهدى والصبر في جنباتنا نعار
الشهقة الثكلى تند كأنما هي من جراح قلوبنا تمتار

* * *

أواه يا صبحي وأنت لي الندا مادامت الاصال والاسحار
الموت أحجية الخلائق لم يزل سرا تذل أمامه الاسرار
انا ولدنا كي نموت وحسبنا لا الدار باقية ولا الديار
قدر يسطر ما يشاء وباسمه تمحى على كف الردى الاسطار

حماه سعيد قندقجي





مع كل أنة يرسلها صدر لاجيء أو نازح أنة للقدس

ومع كل دمعة تذرعها ثكلى أو يمطرها يتيم دمعة لها

ومع كل قطرة دم وصوت كل قذيفـة أمل في عودة الحق ٠

فمصيبة القدس عظيمة لكن مصيبة اللاجئين بها أعظم ، فبها قد تمت المأساة والفجيعة ٠٠ ولقد حل بتشرين أمل وانتعاش ، غير أن الجرح لا يزال داميا والمأساة لا تزال ماثلة ٠

ان القدس تعيش في كل قلب وتؤرق كل روح لاسيما أرواح أولئك المنـــكوبين المشـردين الذين يقدمون النفوس الطاهرةوالدماء الذكية كل يوم ٠٠

ان لسان حال الجميع يتجه اليها مع كل شروق وعقيب كل غروب ليقول :

الفـكر في قلق والـروح والنفس   تبكيك عيني ويهفو القلب يا قدس

يا قدس للكرب في أرواحنا طـرق   على نهايتها قد خيـــم اليـــأس




من أجلك اليوم نقتات المهوم فلا ـ والله ـ يحلو لنا عيش ولا أنس
نعيش في لجج الاحداث تغمرنا فمنذ نكبتنا قد غابت الشمس
نحن اليتامى فماذا بعد نكبتنا ؟! قد ضاع عند أسانا اليوم والامس
ففي الخيام نفوس قد أضربها هول الشقاء وقد أزرى بها البؤس
أنى اتجهت تر الايام ترجمهم وليس يمنعهم سيف ولا ترس
في كل يوم يقيم الغدر مجزرة فالقصف ديدنه والقتل والدرس
سبع وعشرون والتشريد يتبعهم فتحت كل سماء منهم طرس (١)
ومن حزيران لاتسأل، فقد صمتوا ففي الوجوه جواب ما به لبس
فما الجليل وما عكا وما صفد وما الخليل، اذا ماضاعت القدس؟!
كأنني بعيون القدس دامعة تطل في حزن أسوارها الخرس
ما للعروبة للاعداء تتركني ؟! أنا التراث أنا الماضي أنا الامس
بي القيامة والاقصى وصخرتكم أنا الفخار لارض الشام والرأس
يا للكنيسة بي ما أطلقت جرسا الا وأسكته من حالها جرس (٢)
والمسجد الضخم بات اليوم في خطر فالحفر مطرد والهدم والطمس

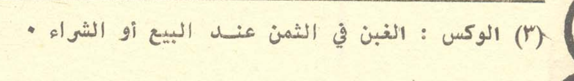
(١) الطرس : الصحيفة التي كتب عليها ثم محيت وبقي فيها أثر الكتابة .
(٢) الجرس : الهمس الخفي .



يرون تحت كيــاني زعم هيكلهم … فكيف يترك هدمي الهيكل النحس؟!
هلا كمثــل يد الفاروق تدركني … فلا يؤخرها ردم ولا خــرس !!
أو فاتح كصلاح الدين ينقـذني … فــلا يدنسني لؤم ولا رجس !!

★ ★ ★

لقد نظـرت الى تشرين باسمة … وأنعشت أملي من جــوه شمس
فما رأيت سوى الثـوار في كنفي … فكان يفرحني من بعضهم همس :
كم من شهيد هوى والعين ترقبه … قضى يضاحكه من سوري اللمس
هوى وساعده في السور ملتصق … وقد تشبث منـه الكف والخمس
وأسند الجسم ، ربي هذه بلدي ! … ونام نــوم قرير وارتمى الرأس
ابن قد اشتاق، أهدى الروح خالصة … ومات يحضـنه من قربي الانس
لبيك يا قدس ! نحن الثائرين هنا … فلـن يطيح بنــا هـم ولا يأس
لبيــك من حضر الآلام تجمعنــا … على الفداء فنحن الحصن والترس
فالحقــد يبعث للهيجا قذائفـه … والكرب يدفع والتشريد والبؤس
قد أقنع الفرد من ثوارنا هــدف … له استراح ، له قد تاقت النفس
به الثلاث وقد يحظى بواحــدة … ولن يعـكره غبن ولا وكس [٣]



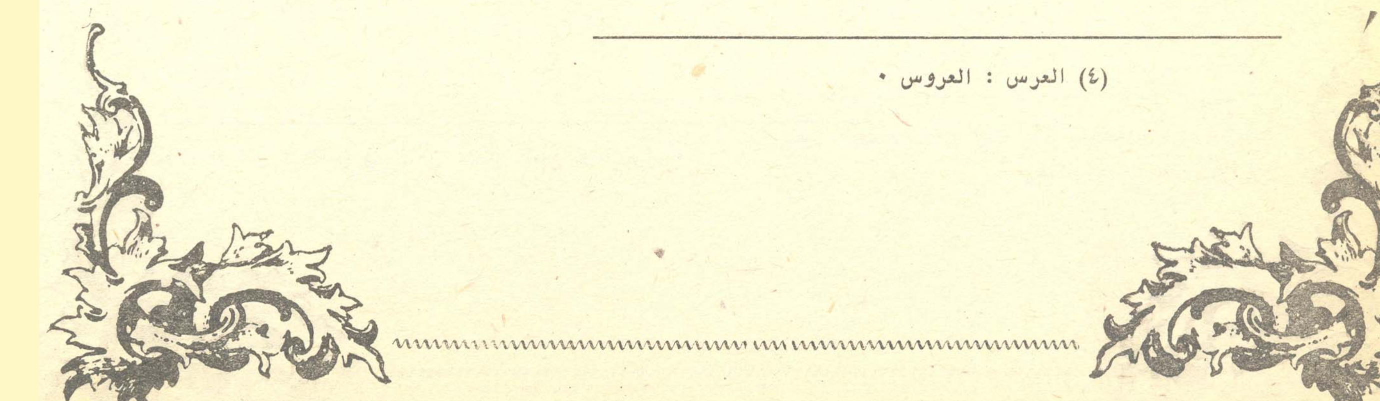
(٣) الوكس : الغبن في الثمن عند البيع أو الشراء .



فان أصاب فهـــذا ما أعـــد له　　وان أصيب ستسقى الارض والغرس
دماؤه ثمنـــا للارض يبذلهـــا　　بها يـــكون له في أرضـــه رمس
وفي الجنان ستلقى روحه وطنـــا　　به الخلود وفيه الانس والعرس(٤)
وان أحاط به الاعداء فهو لهـــا　　فلن يضيق به في أرضـــه حبس
لبيك يا قدس ! لن نرضى بحاضرنا　　ولـــن نـــذل اذا ما أخفق الامس
فنحن في الارض قد ذابت هويتنا　　وليس يحصرنا لـــون ولا جنس
في الشرق والغرب في القطبين نرصدهم　　والموت عدتنـــا والطعنة الخلس
فلن يطيب لهم عيش ولا سكن　　ولن يروق لهم حفـــل ولا عرس
نحن الفناء اذا ديست مصائرنا　　نحن البلاء ونحن الهول والبأس
وليس يحرفنا للسلم مؤتمـــر　　وليس يفزعنـــا جن ولا انس
فلا سلام اذا عشـــنا بلا وطن　　ولا حياة اذا لم ترجع القـــدس

* * *

دمشق　　**محمد خالد حبيب**



(٤) العرس : العروس .

التراث وقضية التطور

عبد الحليم عباس .

من البديهيات :

ان عجزنا الفكري عن استيعاب البديهيات ، من اخطر ما يواجه عقولنا من آفات وازمات . ان زعم البعض بانه لاتوجد بديهيات على الحقيقة ، لا يكفي لأن يكون مبررا للمحاكمات الجدلية حول القوانين البديهية المطروحة - كالشمس - في ساحة الحياة الرحبة .

وفي البداية اطرح هذا التصور الذي اعتبره - من جانبي - بديهي من البديهيات المطروحة في ساحة التطور العقلي .

« انني لا اترك رأس المال الموجود معي ، واعمد الى استعارة رأس مال آخر . ان الاستدانة تعني الافلاس الحقيقي ، وان الاعتماد على الاستدانة وحدها ، مع امكانية وجود رأس مال خاص مرفوض في لغة العقل ، وليس له تفسير اخلاقي عقلاني » .

ان هذه البديهة لو احسن استيعابها كفيلة بان تحدد الموقف الواعي المتطور من قضية (التراث)وكفيلة بالقضاء على كل جدل عقلي او لغوي حول هذه القضية ؟ ..فتراثي اولا وقبل كل شيء .. تراثي حفل بالسلبيات او ازدحم بالايجابيات ... احتاج الى ترميم خارجي ، او كان كافيا لاقامة الطوابق العليا فوقه . تراثي اولا وقبل كل شيء سواء تخصصت بعد ذلك في فرع من فروع الحياة المعرفية او اندمجت في القوافل العاملة في الاعمال اليدوية . ان التراث ليس مجموعة علوم دينية او ادبية كما يتصور البعض ، ان التراث اعم من ذلك واشمل . انه معالم نفسية وفكرية وجسمية تستمر من الماضي عاملة في الحاضر ، وموجهة دفة المستقبل مهما كانت الرياح عاتية والامواج مضطربة وحتى الكلمة في هذا التراث .. الكلمة الشاعرة ، او الكلمة الناثرة ، او الكلمة المتحركة في الحياة تحرك الفعل الملموس .. هذه الكلمة ليس مجرد مفردات او حروف ، وليس اصطلاحا مجردا لمحسوس ما فحسب ، بل هي كما يقول بعضهم (تكثيف لعادات وتقاليد

وقيم، ولاحاسيس وافكار ، ولاحداث ومعان ٠٠ انها تكثيف لماض يتحول ويتفجر في الحاضر ليصبح مستقبلا ، او انها نقطة تقاطع لابعاد كثيرة فيها تتلاقى وتفترق ، واليهاتعود ضمن حركة لاتنتهي ، هي حركة الانسان في نموه) ٠

ان التراث شكل الحياة ومضمونها يعملان بامتداد وتأخ في خدمة الانسان ، لان الانسان ليس الكائن الحاضر او المستقبل فقط ، بل هو كما عرفه بعضهم بحق ـ «كائن تاريخي » ، يختلف عن الحيوانات في ان له تاريخا يعيه ، وتراثا يفيد منه في حاضره ومستقبله ٠

التراث والتطور

ان كل الحركات التي حاولت ان تلعب دورا في التاريخ بدأت من التراث ، وتعاملت معه بطريقة ما ٠ انها لم تبدأ من الصفر ، لان تخطي عشرات القرون من عمر اية امة عبث لا يقوم به مسؤولون عاقلون متحضرون ٠

لقد وعي اقطاب عصر النهضة في اوروبا هذه القيمة للتراث بالنسبة لقضية التطور ٠ ومهما كان موقفهم من التراث الاغريقي ، فانهم لم يرفضوه ـ كما يظن البعض ـ وانما رفضوا لاهوتياته غير العقلانية ، ورفضوا بعض منطقيات ارسطو غير المنطقية ، ورفضوا تجميد المعقولات بحجة كينونتها الدينية ، والنتمائاتها الميتافيزقية ، ورأوا ـ او رأت روح مسيرة النهضة ـ ان الاشياء يمكن ان تفسر وتفهم وتكتشف قوانينها على الرغم من اصلها الالهي (وهو ما يقول به الاسلام وما كانت ترفضه الكنيسة في العصور الوسطى) ٠

وفيما سوى ذلك فان اقطاب عصر النهضة لم يمثلوا رفضا قاطعا للتراث ، وانما مثلوا كما يقول قسطنطين زريق في محاضرة له ـ « رفضا للعقلية اللاهوتية الكلامية الوسيطية التي جندت منطق ارسطو وفلسفته لغايته ، ولكنها كانت ايضا من جهة اخرى بعثا للتراث اليوناني في عقلانيته وللتراث اليوناني واللاتيني في انسانيتهما ، وفي روائع اصولهما الفنية والادبية ٠ ان النهضة ـ وما زلنا مع قسطنطين زريق ـ كانت حافلة بنزعات التجدد والتأصل معا ، ومن هنا كانت عظمتها وكان اثرها البارز في الحضارة الاوروبية ٠

وحتى الماركسيون وهم اصحاب دعوات الانقلابية التطورية والثورية التاريخية العنيفة ٠٠ انهم ابدا لم يقوموا بنفي الماضي ، ولا بوأد التراث ، وانما وقفوا ـ او وقف مفكروهم الملتزمون ـ موقفا موضوعيا من تراث شعوب الاتحاد السوفياتي والدول الواقعة تحت تأثيرهم ٠

وتقديرهم الكبير لتولستوي وتراثه الانساني يكفي دليلا على ذلك ٠ ومن اقوالهم الحاسمة في ذلك ، « ان النفي في نظرية التطور لايعني الفناء التام لكل محتوى القديم ، فاولا ، ليس من النادر ان تستمر الظواهر الابسط في البقاء ، الى جانب الظواهر الجديدة الاعقد ، وهذا ما يجري ، مثلا ، في الطبيعة الحية ، فالى جانب الحيوانات ذات التنظيم الرفيع توجد في الطبيعة حيوانات بالغة البساطة ، وثانيا ، وهذا الاهم عندنا ، ينشأ الجديد من القديم في عملية التطور الصاعد نفسها ، فكأنما يقتص كل ما كان في القديم من ايجابي وقيم ٠ وكل نوع جديد في الطبيعة الحية يأخذ الصفات المفيدة التي كدسها السلف في عملية التطور التدريجي ٠ وفي تاريخ المجتمع ينشأ كل نظام اجتماعي جديد، لا في مكان فارغ، بل على اساس استيعاب الثروات المادية والروحية التي اوجدت في الحقب السابقة ٠

« لقد قام اناس من غلاة الثوريين « بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية (مازال الحديث للماركسيين فاقترحوا القضاء على كل الحضارات القديمة بحجة انها برجوازية ، وانماء حضارة بلوريتارية » لا صلة لها بالماضي ، وبلغ الامر باكثرهم تحمسا حد المطالبة برمي مؤلفات الشاعر الروسي العبقري « بوشكين » خارج سفينة التاريخ ، وقد انتقدهم لينين انتقادا شديدا ، وبين ان

البروليتارية هي حافظة تقاليد الماضي التقدمية الديموقراطية ، والمتابعة الكفء لها ، ولا يمكن انشاء حضارة اشتراكية في مكان فارغ ، ويجب لتطويرها والمضي بها قدما الى الامام ، اغناء الذاكرة بمعرفة جميع القيم التي صنعتها البشرية ، وهكذا فان النفي لا يعني انعدام الصلة وفقد الاستمرار المترابط في التطور • فالظاهرة التي تنشأ نتيجة النفي تحافظ على كل ما كان في المرحلة السابقة من ثمين » •

هذه خلاصة رأي الماركسيين – وسلوكهم – في قضية التراث •

ومن الرأيين والموقفين ، الرأسمالي والماركسي ، طرفي النقيض ، تتثبت الحقيقة البديهية التي نقول بها والتي خلاصتها :

« ان رأس المال الذي املكه يحتل المكانة الاولى من ارصدتي ، بل هو رصيدي الاول ، الذي يجب ان اعتمد عليه في صنع ارصدة جديدة » • وهذه بديهية من البديهيات المطروحة في ساحة التصورات من وجهة نظري •

نحن والتراث قضية وجود واحدة :

ان التراث هو مجموع الماديات والروحيات التي تصاحب الامة على مدار تاريخها • ومن المعلوم ان الامة قد تقوم نفسها بغربلة بعض معتقداتها او عاداتها وفقا لقواعد البقاء للاصلح ولمستوى تطورها ورقيها الفكري •• لكن هذه الغربلة المعقولة التي تنطلق من داخل الامة وتطورها التلقائي والذاتي ليست هي ما يريده البعض من ضرورة تنمية التراث ، لانه في رأيهم لا يجوز اسقاط الماضي على المستقبل •

والتراث الحي يقبل الاضافة دائما ، وما يزعمه البعض من ان الاضافة للتراث لا تكون الا باقتلاع جذور المستقبل ، انما يعكس بصدق عجزهم وقصورهم الشخصي، ورغبتهم التكاسلية الساذجة في العمل الى جانب الهدم السهل ، لا البناء الايجابي الصعب •

وعلى سبيل المثال ، فان التراث الاسلامي قد عاش اربعة عشر قرنا من الزمان ، شهد خلالها من المذاهب الفكرية المتناقضة او المتعاونة ما يندر وجود مثله في حضارة من الحضارات• ومع ذلك فان اصول هذا التراث مازالت قابلة للاخذ والعطاء ، وقد حفظ تراثنا كل هذه المذاهب تقريبا ، واستطاع وعي الامة وعقلها الاسلامي ان يصفي بعضها تصفية تاريخية ، وان يعدل في مسيرة بعضها ويدمجها في الخط العام للجماعة الاسلامية •

ان التراث الاسلامي ليس اراء الحكام ، وليس ما يفرضه الحكم من نظم وآراء ، بل هو الحضارة الاسلامية التي صنعها الشعب المسلم والامة المسلمة في نواحي الحياة المختلفة ، الفكرية منها والعملية •

واذا كان اهتمام الدارسين للتاريخ الاسلامي – للاسف الشديد – قد انصب على التاريخ المرتبط بالحكام ، وعلى الحضارة والفكر الموصولين بالقصور ، فان ذلك لا يعني ان التراث هو مجموعة من الآراء و « القيم الارهابية » المنطلقة من الحكام ، بل يعني اننا – نحن الدارسين – قد قصرنا في منهج دراستنا لحضارتنا واننا ظلمنا تراثنا ظلما فاحشا •

ونضرب مثلا بهذه القصة الحاسمة الدلالة على مدى الثراء والانفتاح والعقلانية التي يتمتع بها تراثنا في مستواه الاجتماعي والجماهيري •

« قال خلف بن المثنى ، شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في المجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علما ونباهة ، وهم الخليل بن احمد صاحب النحو وهو سني ، والحميري الشاعر – وهو شيعي – ، وصالح بن عبد القدوس – وهو زنديق – ، وسفيان بن مجاشع – وهو خارجي صفري – ، وبشار بن برد – وهو شعوبي خليع ماجن – ، وحماد عجرد

ـ وهو زنديق شعوبي ـ ، وابن رأس الجالوت الشاعر ـ وهو يهودي ـ ، وابن نظير المتكلم ـ وهو نصراني ـ ، وعمر بن المؤيد ـ وهو مجوسي ـ ، وابن سمان الحراني الشاعر ـ وهو صابيء ـ كانوا يجتمعون فيتناشدون الاشعار ، ويتناقلون الاخبار ، ويتحدثون في جو من الود لايكاد يعرف منه ان بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم .

ان تراثنا اتسع افقه فاستوعب كل هذه الانماط التي سايرت الحضارة الاسلامية، ولم تعلن عداءها الصريح لها ، لهو تراث قادر على استيعاب كل ما يمكن ان يقدمه العصر الحديث من مذاهب وانماط فكرية ، وقادر كذلك على امتصاصها وتعديل حركتها عبر مسيرته التاريخية .

على ان الحركات الجدلية قامت حول بعض قضايا العقيدة ، ليست الا جانبا واحدا من جوانب تراثنا ، واذا كانت القضايا الجدلية التي طرحتها على العقيدة الاسلامية بقايا الوثنيات المنهارة ذات طابع خاص ، استلزم من رجال العقيدة الاسلامية رد فعل متماثلا للمنطق السائد في هذه القرون ، فان ذلك لا يعني ان نتجمد نحن ـ ورثة هذه العقيدة ـ عند هذا المنطق ، ثم نعيب على اسلافنا انهم لم يجيبوا بالاجابات التي يتطلبها « منطق العلم » السائد في عصرنا نحن .

والقيمة التراثية لهذه الاجابات التي اشتهرت باسم علم الكلام او « التوحيد » هي انها تمثل بعض القيم التي سادت في تاريخنا الفكري ، انها تمثل ـ مثلا ـ قيمة « الصمود العقلي » الذي بذله الاسلاف في وجه « غزو فكري » زاحف وتمثل قيمة ارتفاع هؤلاء الى مستوى القضايا المطروحة وعلاجها باحدث الاساليب المتعارف عليها في عصرهم ، وتمثل جزءا من عمل « العقل الاسلامي » يلزم الاحتفاظ به كما يحتفظ الاخرون ـ الذين لايريدون الاندثار ـ بمعطيات عقول اسلافهم ، باعتبارها تدخل في اطار التقويم العام لدورهم في الحضارة .

ومع ذلك « فعلم الكلام » هذا ليس الا جانبا واحدا من الجوانب المتعددة في تراثنا . ولنفرض جدلا ان « علم الكلام » هذا شغل حيزا كبيرا من تراثنا الفكري ، اليس من المعروف ان اهتمامات العصور المختلفة يزداد في جانب من الجوانب على حساب جوانب اخرى ؟ .. واليس من المعلوم كذلك ان السمة الغالبة في القضايا التي شغلت بال الانسانية كلها قبل القرن السادس عشر انها كانت قضايا « نظرية انسانية »لا عملية تجريبية ؟ . فلماذا لم تحاكم اوروبا تراثها في العصور الوسطى لانه لم يعالج القضايا التي تعالجها محطة « جون كنيدي للابحاث الفضائية » مثلا ؟ . اليس في محاكمة التراث على هذا النحو لون من الغباء المتعمد والسذاجة الغريبة ؟ .

ويبقى ان تراثنا بعد « علم الكلام » تراث حافل بموضوعات كثيرة يمكن القول بانها تمتد حتى تشكل ارضية ثقافية صالحة للتعبير عن عصورها المتتابعة .

ان المسجد والمصنع والمزرعة والبادية والبيت تتحدث لغة واحدة في هذا التراث ، واذا كان المجتمع الاسلامي كله يقوم من خلال هذه العصور ـ ولا يزال الى حد ما ـ على اسس اسلامية عامة ، فان لهجات المجالات المختلفة في هذا المجتمع مهما اختلفت اصواتها ـ لابد ان تكون في النهاية متقاربة على الاقل .

والمتتبع لهذه اللغة المشتركة التي حدد الاسلام ابجديتها العامة سوف يجد ان امتداد التراث الاسلامي كان امتدادا شاملا معبرا التعبير الصحيح عن سائر انشطة الحياة في هذه العصور .

واذا كانت ظروف ما تجعلني « اضغط واشدد على مرحلة وعلى اتجاه فان من الضروري الا اقف موقف الانتقاد الجزئي او الموقف النفعي العملي . التراث كله تراثنا فلنحسن اداركه واستيعابه وكشف حقائقه بطريقة نقدية خلاقة .. وما اقصده بالتراث ليس هو التراث المكتوب فحسب ، بل التراث بمعناه الحي الشامل المتحقق في مختلف اشكال التربية بالتعبير الفكري الادبي الفني او السلوكي

عامة . بل اضيف اليه كذلك التراث الشعبي . ان احياء هذا التراث واستيعابه استيعابا نقديا تاريخيا واستلهاما خلاقا هو بعد من ابعاد ملامحنا القومية .

اننا لا نستطيع ان نحدد تاريخنا ماضويا اومستقبليا لهذه المياه التي نراها ونسبح احيانا فيها .. ولا توجد علاقة زمنية بين تاريخ الاسكندرية وبيروت وبين مياه البحر الابيض المتوسط . ان التراث في الحقيقة – بعد التصاقه بالامة يفقد معناه الزمني الماضوى .. انه يصبح « موقعا من مواقع الامة » وعلما من معالمها ..انها تستطيع ان تنتفع به اذا شاءت وغاصت الى الاعماق ، وتستطيع ان تسبح فوقه لتصل الى شاطىء آخر ، وقد تستطيع ان تقف حركة نموها مستفيدة من موقعها الجغرافي ومياهها الاقليمية فحسب . وتستطيع ايضا ان تتجاهل الواقع فوق سطح الحياة ، وتغرق نفسها في مياه البحر .. لكنها ، مهما يكن الامر – لا تملك زحزحةالبحر عن مكانه ، او تدمير علاقتها به الى الابد . ان حقيقة علاقتنا بتراثنا تكمن في هذه الصورة ، وبامكاننا ان نحدد علاقتنا بهذا التراث بنفس الطريقة التي تحدد بها البلاد الساحلية علاقتها بالبحار .

« ان الاحداث الماضية صغيرها وكبيرها .. ابعدها في الزمن واقربها الي .. هي التي كونتني – مثلا وكنموذج – بوصفي عربيا ... عرفت هذه الاحداث أم لم اعرفها ، درستها أم لم ادرسها ، فحاسيتي وردود افعالي على الاحداث المحلية والعالمية ، ونظرتي الى الامور وتقويمي لها ، كل ذلك يعين لي موقعا في التاريخ الانساني، كما يؤلف موقعا كاملا من الوجود هو الذي يجعل مني عربيا ان التراث هو حجر الزاوية في البناء الحضاري للامة ، وباستعدادنا له نستكمل وجودنا الحقيقي ..

والذي لم تستكمل شخصيته مقومات وجودها قاصر ، والقاصر يوضع تحت الوصاية حتى يبلغ سن الرشد .

محاولات التخريب في تراثنا :

خلط كثير من الدارسين المعادين للتراث الاسلامي – عن عمد – بين مستويين مختلفين ، يمثلان معطيات هذا التراث – اما المستوى الاول فهو (المستوى الروحي) ، واعني به الاصول الثابتة الواضحة التي جاء بها الاسلام ، واما المستوى الثاني ، فهو « المستوى الفكري » اي عمل العقل الاسلامي المنطلق من هذه الاصول ، لدائرة حولها في المجالين النظري والعملي .. ونقول : ان هؤلاء قد خلطوا عن عمد ، لانهم ارادوا التسوية بين ما هو «منقول» وبين ما هو « معقول » وما هو من « فوق » لاتحتمل طبيعة العقل الحوار فيه ، وما هو « بشرى » يحتمل الخطأ والصواب .

ان الامام « مالكا » –رضي الله عنه – كان يقول (كل مخلوق يؤخذ من كلامه ويترك ، الا صاحب هذا القبر) مشيرا الى قبر الرسول – عليه الصلاة والسلام –، وكان الامام الشافعي – رضي الله عنه – يقول : (اذا صح هذا الحديث فهو مذهبي) ، ويقول ايضا : (كلامي – من وجهة نظره بالطبع – صواب يحتمل الخطأ وكلام غيري خطأ يحتمل الصواب) ، ولقد حفظ لنا التاريخ مذهبين للشافعي ، عرفا بالقديم والجديد ، كما ان القرن الرابع الهجري كان يحفل بثلاثة عشر مذهبا فقهيا لم يبق منها بين ايدينا على نحو متكامل ، الا اربعة مذاهب .. فما معنى هذا ؟ ..

ان معناه الواضح الموجز ، ان تراثنا فرق بين المنقول والمعقول ، تفرقة واضحة ، وانه فيما يتعلق بالفروع الدينية الداخلة في اطار المعقول والعلوم المعاشية الاخرى كان واسعا منفتحا يتمتع في الخصوبة بالاراء والمحاورات ، والنظر المحايد لهذا التراث يجب ان يتركز عند المستوى البشري منه فقط ، لان المستوى – المنقول – مستوى موجود في كل مراحل التاريخ ، وهو ايضا تداخل في اطار عقيدة كاملة ، يمكن النظر اليها لوحدة متكاملة .

وقد عبر الدكتور زكي نجيب محمود عن هذه الحقيقة بعد مسيرة محفوفة بالمنزلقات في كتابه « تجديد الفكر العربي . ص ١٣٥ » فقال :

« وكان لا بد من ان يجيىء من يختار لنفسه موقفا وسطا بين الطرفين ، فكان هذا التوسط نصيب ابي الحسن الاشعري ، الذي خشي ان يذهب دين الله وسنة رسوله ضحية الآراء المتطرفة من يمين او يسار ، فحاول ان يوفق بين هذه الآراء ، وانتهى الى ان يجعل العقل كل شيء ، كما اراد المعتزلة ، والا يجعل الايمان بالنص وحرفيته كل شيء ، كما اراد المتطرفون من اهل السنة واتباع السلف، فمن جهة رأى ان العقل وحده لايكفي لدعم الدين كما ظن المعتزلة ، اذ لو كان امره كذلك فماذا تكون قيمة الايمان بالله وبالكتاب المنزل ؟ اليس الايمان بالغيب مبدءا اساسيا في الحياة الدينية ؟ • لكن الغيب يتجاوز حدود البراهين العقلية •اذن فالعقل وحده لا يكفي ، فلماذا ، اذن ، لا نجعل المسائل مشاركة بين العقل والايمان معا ؟، فللعقل ما يستطيعه من تحليل وتفسير وتأويل ، وللايمان ما تقتضيه مبادىء الدين واصوله مما يتجاوز حدود العقل، بهذا يكون لكل من العقل والايمان ميدان وينحسم كل خلاف » •

وليس ثمة شك في ان الذين يخلطون بين المستويين انما يريدون رفض الجانب الالهي منه ، متخذين من ثوب التراث الواسع ستارا لهذا الهجوم• ونستطيع في ضوء هذا التحليل ان نضع شعارات رفض التراث على اساس من – جموديته – أو – لا عقلانيته – أو – غيبيته – او – خرافيته – في مكانها الصحيح •

لقد تعددت محاولات التخريب في تراثنا ، كما تعددت مجالات التعريب ايضا •• وفي رأي بعضهم انه « لا بد من تبني الماركسية لتحديثنا ، بل سبيلا كذلك لتأصيلنا ، وانه ما احوجنا الى تطبيق العلم الماركسي على ماضينا وعلى واقعنا العيني تطبيقا جادا خلاقا ، وما احوجنا كذلك الى تحديد دقيق لمفاهيمنا الثورية » •

وفي رأي اخرين ، اننا لايجوز ان نجعل الماضي مقياسا للحاضر ، وكيف نجعله المقياس ، مع ان الحاضر افضل من الماضي بحكم فكرة التقدم نفسها ، وايضا في رأي هؤلاء « اننا لا يجوز ان نأخذ من التراث الا ما نستطيع تطهيقه اليوم تطبيقا عمليا ، فيضاف الى الطرائق الجديدة المستحدثة •• فاذا كان عند اسلافنا طرائق عيش تفيدنا في معاشنا الراهن ، اخذناها • وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث ، واما ما لاينفع نفعا عمليا تطبيقا فهو الذي نتركه غير آسفين •

وفي رأي مجموعة اخرى ، ان التراث برمته لابد من ان يكنس من طريقنا ، لاننا لابد ان نهدم البناء القديم ، ونزيح انقاضه اذا اردنا ان نبني جديدا (كثير من المستغربين والمتمركسين يذهبون الى هذا الرأي) –والجدير بالذكر ان الرأي القائل بتبني الماركسية سبيلا لتحديثنا لا يختلف كثيرا في حصاده الاخير عن الرأي القائل بانتقاء بعض طرائق العيش ، التي يمكن ان تفيد في حياتنا الحاضرة وطرح ما سوى ذلك من جوانب تراثنا الاخرى • فالسماح للماركسيين بتشريح تراثنا بالمبضع الماركسي سوف يؤدي الى رفض الجوانب العقائدية الايجابية في هذا التراث ، كما ان هذا التشريح سوف يؤدي كذلك الى تطويع هذا التراث تطويعا غير حقيقي للمنهج المادي الجدلي التاريخي • وهذا الرأي الماركسي على اية حال سوف يأخذ بعض التراث ويرفض بعضه ، فهو ايضا يتعامل مع التراث تعاملا : « نفعيا انتقائيا » غير ملتزم وغير واع بحقيقة العلاقة التي تربط التراث بالامة •

ان هذا الرأي – كما قلنا – لا يعدو ان يكون الوجه الاخر لعملة الرأي الانتفاعي الانتقائي الذي يتعامل مع التراث ، وكأنه يتعامل مع الافكار الاجنبية الوافدة التي يتوجب عليه ان يأخذ بعضها ويرفض بعضها الاخر •

والفت النظر الى نقطة هامة في هذا المقام • انني

شخصيا قد انكر بعض مافي التراث بحكم ضميري الاسلامي، او بحكم القوانين الانسانية العامة · لكن انكاري لبعض السلوكيات او الاراء التي روجت في بعض الفترات لايعني انني استطيع طرح هذه المظاهر من تراثي · انني قد ارفض الايمان بها او العمل بها ، بل قد انقدها واضعها على محك المبادىء الاسلامية المتناقضة معها ·· انني افعل كل ذلك وارفض مثلا ان يرى الحجاج بن يوسف الثقفي في اهل العراق « رؤوسا قد اينعت وحان قطافها » لكنني مع كل ذلك لا استطيع ان انزع هذه الصفحة السوداء من كتاب تراثي ، لان حلقات تراثي تتطلب الاتصال بكل الوانها · وما علي ان يكفهر وجهي من مطالعتي بعض هذه الصفحات ، فهي قدري الذي ورثته ، وواجبي ان احمله الى الاجيال التالية ، بعد ان اقول فيه رأيي ، وان احفظه ايضا للانسانية كلها ، فهي صاحبة حق فيه ··

وبايجاز

لينتفع هذا الجيل بما شاء من التراث ، وليغض النظر عن جوانب منه ، لكنه يجب ان يحفظ التراث ويحقق ويقدم للاجيال اللاحقة ، لتأخذ منه نصيبها ، ولتغض النظر عن بعض جوانبه اذا شاءت ايضا ·

فاذا اضفنا الى هذا ان ما اسميناه — الجانب الروحي — في هذا التراث يشكل عناصر شبه ثابتة ، يحفظ للامة خطها العقائدي والفكري ، ويرد ملامحها المتفاوتة ، وقسماتها المتباينة الى اصول عامة ، تجعل منها امة ذات اصل واحد ·· اذا اضفنا هذا علمناكم هو مهم ان نتفق على العناية بالتراث كله ، حلوه ومره ، اسوده وابيضه ، بصرف النظر عن تطورات مفاهيمنا الزمنية ·

اما القائلون بالاستغناء عن تراثنا كله ، مستخدمين في ذلك تشبيهات شعرية ساذجة ، كقولهم ، ان ابناء البيت الجديد يحتاج الى هدم القديم وازالة انقاضه ، متجاهلين ان التراث ليس بيتا قديما او جديدا كما ذكرنا من قبل — وانما هو نهر متدفق ابدا يسقط الزمن من حسابه ، ويدخل في اطار الشخصية والموقع الجغرافي والاساس الارضي الذي تبنى فوقه كل الطوابق الجديدة ·

ان ما هو واقع اليوم وما هو كائن غدا في حياة كل امة سرعان ما يصبح هذا وذاك بالنسبة لها تراثا ·

فالحدود الزمنية تفقد معنا بالنسبة للامتداد الحضاري والتراثي ، وفي كل امة من الامم توجد ظواهر — التعاصر — و — التآلف — في كثير من جوانب الحياة ، بين الماضي والحاضر والمستقبل في اطار ابداعي واحد ·

« ان الاحداث في المفهوم تفقد بعدها الوجودي ، وتصبح علما قائما فوق الزمان والمكان ، فليس التراث مجرد مجموعة اثار قائمة امامنا قيام الاشياء نقيس طولها وعرضها ، انما هو الوجه البين والمبين من تاريخنا · ان وجودنا بوصفنا عربا — مسلمين — اذا كنا نعني حقا ما نقول ، عندما نقول ، اننا عرب ، او اننا مسلمون — ، فهذا الكيان الوجودي المتميز المحدد المستقبل الذي يمثله التراث هو الذي يجب ان يجابه الصهيونية والاستعمار ، وكل ضرب من ضروب الغزو الاجنبي ·· هو الذي يقيم — او يجب ان يقيم حوارا مع الثقافات العالمية ، هو الذي يضعنا — او يجب ان يضعنا — بمستوى القرن العشرين، وحضارات القرون التي ستلي ·· وهو — اخيرا — الذي ستنبثق عنه رسالتنا وما حملناه في الماضي ، وما سنحمله — دوما — من قيم ومعان الى العالم في تفاعلنا ، اخذا وعطاء مع البشرية المتسابقة الصاعدة ·

الكويت — **عبد الحليم عويس**

صفحات من تاريخ العلم وتطوره عند العرب

• احمد أبو سعد •

ماهية العلم :

العلم هو جمع الحقائق ، وتنسيقها لموضـــوع ما ، واستخراج العلاقة والارتباط بين هذه الحقائق ، ومن ثـم وضع نص لهذه العلاقة أو الارتبـــاط في صورة قاعدة أو قانون ، تعمد فيما بعد الى البحث في النتائج التي يمكن أن يؤدي اليها ، مع الاستيثاق من صحة هذه النتائج عن طريق التجربة أو الاختبار والمشاهدة •

والعلم نوعان : نظري ، وتطبيقي ، فالنظري يهدف الى كشف الحقيقة ، وتعليل الظاهرة للوصول الى الحقيقـة نفسها ، والتطبيقي يسعى الى استعمال ما يتوصل اليه العلم النظري في اغراض عملية مختلفة •

نشأة العلم وتطوره :

العلم بمعناه العام قديم قدم الانسان نفسه ، بدأ منذ بدأ المرء يتسائل عن كيفية حصول الظواهر ، وعن طريقة تدبير أموره ، والوسائل التي يحصل بها قوته ، ويتقي بها شرور العالم الخارجي ، بما فيه من العوامل التي تهـدد حياته وتنذره بالفناء •

غير أن هذا العلم الذي تجمع لديه كـان متصـفا بالروحانيات مستغرقا في الماورائيات أو الغيبيات ، يرد أكثر الحوادث الى الارادة الالهية ، ثم ان المدنيات الابتدائية في فجر التاريخ توصلت الى مقادير من العلم كانت دليلا عليها في حياتها البدائية وواسطة لدعم أساليب انتاجها ، توصلت الصين والهند والاشوريون والكدانييون والمصريون الى علوم راقية في الطب والزراعة والفلك والطبيعيات ، ثم تبلورت هذه المعارف في اليونان فارتقت الى درجات سامية ، وتوصلت الى حدود لا تجاري عـلى أيدي أرخميدس وديموقريطس وفيثاغورس وبطليموس الذين كانت لهم نظريات تناقلتها الاجيال ولا تزال من الاسس التي تعتمد عليها معارفنا في الوقت الحاضر • ويمـكن أن نعتبر موخوس الصـوري وديموكريت اليوناني رائدي المذهب الذري في العالم •

ثم جاء دور العرب في التاريـخ فترجموا الكتـب اليونانية ، واطلعوا على علوم القدماء واستطاعوا أن يعرفوا أمورا كثيرة لم يكن قد سبقهم اليها اليونان ، فكان لهم فضل كبير في تقدم علم الطب والرياضيات والميكانيك والجغرافية والتاريخ ، ولقد امتاز بينهم في التفكير العلمي الدقيق كثير من الباحثين أمثال الرازي وجابر ابن حيان وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون •

تراث العرب العلمي :

تاريخ الحضارة العربية يكشف عن الدور الذي قام به العرب في تقدم العلوم وتطورها ، فاكتسبوا بذلك مكانة لم ينكرها عليهم عدد من علماء الغرب المنصفين أمثـال ساراطون ، وسيدو ، وويلز ، ونيكلسون ، والبـارون كارادي فو ، يقول نيكلسون :

« وما مكتشفات اليوم لتحسب شيئا مذكورا ازاء مـا نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء في

القرون الوسطى المظلمة ولاسيما في أوروبة » .

ويقول البارون كارادي فو : « ان الميراث الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به ، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وانمائه حتى سلموه الى العصور الحديثة » . ويذهب سيدو الى أن العرب في واقع الامر أساتذة أوروبة في جميع فروع المعرفة .

غير أن الاهمال الذي مني به تراث العرب العلمي جعل الكثيرين منا يجهلون حقيقة هذا الدور ، ولا بد من وقفة ولو سريعة لدى تطور خط المعرفة عند العرب منذ العصر الجاهلي حتى العصور الحديثة .

علوم العرب في الجاهلية :

معلومات أولية ، وملاحظات بسيطة ، أخذوا بعضها عن جيرانهم وأضافوه الى ما اكتسبوه هم بالاختبار ، فكان منهم الاطباء والطبيبات ، نذكر منهم ابن خديم ، وكانت لهم معرفة بالاستدلال بمواقع النجوم وحركاتها ومداراتها وعلاقاتها بحوادث العالم من حيث الحظ والمستقبل ، وهو كما كان يعرف عندهم بعلم التنجيم ، كما كانت لهم معرفة بالانواء بسبب حاجتهم الى التنقل ، وبالطب البيطري ، لشدة رغبتهم في بعض الحيوانات وسهرهم عليها ، وبتحسين النسل ، وهو الموضوع الذي أصبح في زماننا هذا علما مستقلا من علوم البيولوجية . ومما يروى عنهم في هذا الباب ، قولهم : ان الزواج من الاباعد أجدى على الصحة وعلى الذرية من الزواج من الاقارب ، وهو ما يقرره الطب الحديث تماما .

أما الطب فقد عرفوا فيه طريقتين : طريقة الكهان والعرافين القائمة على السحر والرقي ، وطريقة المعالجة الحقيقية القائمة على العقاقير والاشربة والحشائش والقطع والبتر والحجامة والكي ، ولهم قصص يستدل منها على أنهم فكروا بالعلاج النفساني .

غير أن هذه المعلومات البدائية الاختبارية كانت أبعد من ان تشكل علما أو شبه علم ، حسب المفهوم الذي نعرفه اليوم .

علوم العرب في الاسلام وعصر بني أمية :

شجع الاسلام العلم وحث على طلبه (طلب العلم فريضة على كل مسلم . اطلبوا العلم من المهد الى اللحد ، اطلبوه ولو في الصين . ان مجلس علم خير من عبادة سبعين سنة) .

ولكن العلوم الدينية هي التي استأثرت بانتباههم في صدره ، عدا علم الطب فانه كان موجودا لحاجة الناس اليه ، وكان في طليعة الاطباء في عهد النبي عليه السلام الحارث ابن كلدة الثقفي وابنه النضر .

اما معالجتهم للعلوم الدينية فكانت على أساس من الوعي والتنظيم ، ولعل أول عمل علمي قاموا به هو تدوين القرآن ، فقد رأوا شيئا من الخطر في الامساك عن تدوينه ، مع انه لم يكن من سهولة التحقيق والتدوين ما هو ميسور لنا من وسائل النسخ والتصوير ، فضلا عن قواعد التحقق والتدقيق .. فانهم نظموا خطط العمل ، فاعتمدوا رواية الصحابة ، وتحروا مدونات كتبة الوحي ، وآثروا - عند الاختلاف - ما جاء بلسان قريش ، لأن النبي عليه السلام منهم ، فلهجة قومه أرجح احتمالا ، ثم خرجوا من هذا العمل العلمي الشاق بنص أجمع على صحته اشتات العلماء ، على ما كان بينهم من منافسة في الفرق والعصبية وسائر المصالح .

ثم جاء العهد الاموي ، وازداد احتكاك العرب بالشعوب التي وقعت تحت سلطتهم ، ولاسيما الفرس والروم فنشأ عن ذلك اللحن الذي كان حافزا الى اهتمام العرب بعلم جديد حاولوا فيه أن يفيدوا اللغة ويستنبطوا أصول النحو ، ولما تم للعرب فتح مصر في القرن السابع الميلادي ، كان من بين ما اهتموا به ترجمة كتب الاغريق التي تبحث في علوم الكيمياء ، فقد سمعوا أن هذا العلم يبحث في طرق تحويل المعادن الدنيئة الى الفضة والذهب ، ويشرح وسائل تحضير الادوية اللازمة لشفاء الامراض واطالة العمر ، فرغبوا في أن يقدروا هم على شيء من ذلك ، فجمعوا عددا من كتب هذا العلم ، واستعانوا في نقلها الى العربية بجماعة من اليونان والاقباط الذين يعرفون الاغريقية والعربية ، وكلف الامير خالد بن يزيد معلمه الراهب ماريانوس فنقل له كتابا في الكيمياء هو - حسب قول ابن النديم صاحب كتاب الفهرست - أول نقل في الاسلام .

ولم يقتصر نشاط العرب في عهد بني أمية على العلوم اللسانية والمسائل الكيميائية، بل تعداها الى الفلك والنجوم اذ تم لهم في هذا العصر نقل أول كتاب في هذا الموضوع عن اللسان اليوناني، ويرجح الباحثون انه كتاب « عرض مفتاح النجوم » المنسوب الى هرمس الحكيم .

علوم العرب في العصر العباسي :

أقبل العصر العباسي وأقبلت معه مرحلة من النهوض، انتشر فيها العلم، وافتتحت المدارس وانشئت المكتبات، وزاد اتصال العرب بالعجم والانفتاح على مجاري ثقافتهم، والتلقح بثمار عقلهم، وتكون على اثر ذلك جيل من الادباء المتقنين لغتين وحمل لواء الترجمة فنقل كثيرا من آثار الفرس والهنود واليونان، وأقبل العرب على العلوم الدخيلة ينهلون من منابعها، ويتدارسون معطياتها، فعرفوا فلسفة أفلاطون وأرسطو، وطب جالينوس وابقرط، وهندسة اقليدس وكتب أرخميدس في الرياضيات والنجوم، وما كان من قبيل ذلك في الكتب الهندية والثقافة الفارسية، ثم لم يلبثوا بعد هذا أن تجاوزوا هذا الطور، فلم يعودوا مجرد نقلة، بل زادوا على العلوم التي أخذوها وأوصلوها الى درجة جديرة بالتقدير .

وفي ما يلي عرض موجز لأهم العلوم التي خطا العرب فيها خطوات واسعة :

في الفلك :

اطلع العرب على هذا العلم، منقولا عن الاقدمين، ولكنهم اعملوا عقلهم واختبارهم وتوسعوا في ما وصلهم منه، جامعين بين مذاهب اليونان والكلدان والهنود والسريان والفرس وبين ما توصلوا هم اليه، وكان دافعهم الى ذلك حاجتهم الى تعيين الاوقات للصلوات ومعرفة الاهلة (اوائل الشهور القمرية) للصيام والعيدين، وكانت النتيجة :

١ – جعلهم اياه علما استقرائيا مبنيا على الرصد والمشاهدة والاختبار .

٢ – توصلهم الى قياس خط الهاجرة (دائرة نصف النهار) . وهو خط وهمي على سطح الارض تكون الشمس عمودية عليه عند الزوال .

٣ – قياسهم محيط الارض ومواقع بعض البلدان، قياسا دقيقا يقرب من القياس الذي اجمع عليه علماء الجغرافية اليوم .

٤ – رصدهم الكواكب السيارة والنجوم (الثوابت) وتعيين مواقعها وافلاكها في القبة الزرقاء، ورسم الخرائط لها، حتى ان اكثر من نصف النجوم المعروفة باسمائها لا تزال تحمل اسماء عربية في الكتب الاوروبية نفسها، وكذلك اكتشافهم ان القمر يختلف في سيره بين سنة وسنة (البوزجاني ٩٩٨ م) وسبقهم الى رؤية كلف الشمس ودرسهم اياه على وجهها (ابن رشد ١١٩٨) . وعرفانهم ان للنجوم ابعادا واحجاما مختلفة، وان الارض اصغر من الشمس كثيرا، واهتمامهم بضبط حركة اوج الشمس، وتداخل فلكها في افلاك اخرى .

٥ – اكتشافهم الخطأ في نظام بطليموس الفلكي القائم على الاعتقاد بان الارض ثابتة وانها مركز النظام الشمسي وتصويبهم اياه بقولهم، ان الارض متحركة (احمد السزجي والبيروني) .

٦ – اختراعهم الاسطرلاب (آلة قياس ارتفاع الكواكب) وعملهم الازياج، وهي صناعة حسابية يستدل بها على حركة النجوم السيارة ومعرفة الايام والشهور والتواريخ الماضية . ولابن يونس (١٠٠٩ م) مؤلف من اربعة مجلدات يدعى « الزيج الكبير » فيه اثبت ان الكسوف والخسوف تزايد حركة القمر، وابن يونس هذا نفسه مخترع بندول الساعة الدقاقة .

في الرياضيات :

برع العرب في فروعها كافة، فعالجوا علم الحساب والجبر والهندسة والمثلثات، الخ .. واهتموا بتطبيق العلوم على مرافق الحياة، وهذبوا الارقام الهندية، واستخدموا الاحصاء العشري، وتقدموا في استعمال الصفر وفي استخدامه للغاية التي نعرفها نحن الآن . ووضعوا علامة الفاصلة للكسر العشري، وعلامة الجذور، وقواعد الجبر واصوله وحلوا معادلاته من الدرجات المختلفة .

واهتموا بالهندسة، خاصة بعد حاجتهم لبناء المدن

والجسور ، فشرحوا كتاب اقليدس ، والفوا كتبا على نسقه اشتهر منهم في هذا العلم محمد بن نصير الدين الطوسي وابن الهيثم وغياث الدين الكاشي الذي تمكن من تبيان كيفية ايجاد نسبة محيط الدائرة الى قطرها ، فقد حسبها هذا العالم فكانت : ١٤١٥٩٢٦٥٣٥٨٧٣٢ر٣ فسبق بذلك الاوروبيين ٠

اما علم المثلثات فيعد العرب من بناته ، اليهم يرجع الفضل الاكبر في وضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك ، وفي الاضافات الاساسية الكثيرة التي جعلت الكثيرين يعتبرونه علما عربيا ، كما اعتبروا الهندسة علما يونانيا ، ومن اعمالهم فيه استعمالهم (الجيب) بدلا من وتر ضعف القوس الذي كان يستعمله اليونان ، واستنباطهم شكل الظل او ما يسمى اليوم بالمماس ، وغير ذلك من الامور العديدة التي تطلب في مصادرها ٠

في العلوم الطبيعية :

تناول العرب علم الطبيعة في فروعه المختلفة (خواص المادة ــ الضوء ــ الصوت ، الخ) وكانت بحوثهم في بعض موضوعاته بالغة درجة كبيرة من الدقة والوضوح ، تجعل الفرق بينها وبين ما اعتمدناه من البحوث العصرية في الموضوعات نفسها طفيفا ٠

ففي الثقل النوعي توصل العرب الى تقدير الاجسام تقديرا يطابق ما قدره العلماء المعاصرون (قدر الخازني ١١١٨ م) ثقل الزئبق مثلا فوجده ١٣ر٥٦ ، والرقم الحديث هو كذلك ، وحسبوا كثافة الرصاص فوجدوها ١١ر٢٣ ، بينما هي ١١ر٣٥ والفرق بين المقدارين ضئيل)

لم يكتفوا بالبحث عن الثقل النوعي للمعادن والحجارة بل تعدوا ذلك الى السوائل ، وقد اختص الخازني بذلك ، وله كتاب باسم (ميزان الحكمة) بحث فيه الجاذبية ، ووجد ان هنالك علاقة بين الجسم الساقط والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه ، وان قوى التثاقل تتجه دائما الى مركز الارض ٠

ولم ينفرد الخازني ببحوثه في الجاذبية ، فقد بحث غيره من قبله ومن بعده من علماء العرب فيها وفي الاجسام الساقطة ، ووضعوا قوانين لذلك (ثابت بن قرة ٨٣٥ ــ ٩٠٠ م ، وموسى بن شاكر ، القرن التاسع) ٠

ويحتوي كتاب ميزان الحكمة المذكور على بحث في الضغط الجوي ، وعلى المبدأ القائل ان الهواء كالماء يحدث ضغطا من اسفل الى اعلى على أي جسم مغمور فيه ، ومن هنا كان وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وكل هذه المبادىء والحقائق هي ، كما لا يخفى ، من الاسس التي بني عليها فيما بعد بعض الاختراعات ، كالبارومتر ومفرغات الهواء ٠

ولم يقف اهتمام العرب عند هذه الامور النظرية في الثقل النوعي ، بل تجاوزها الى الناحية العملية ، فان عباس بن فرناس الاندلسي فكر في الطيور وكيف انها تسبح في الفضاء ، وادرك ان ثقلها النوعي يخف لمكان الريش ولمقاومة الهواء لجناحي الطائر ، ولذلك كسا نفسه ريشا وجعل له جناحين وقذف نفسه من برج في مدينة قرطبة ، فاستطاع ان يطير مسافة ما ، ولكنه غفل عن ان يجعل لنفسه ذنبا يقاوم الهواء اذا اراد السقوط على الارض ، فهبط وقتل ٠

واشتغل العرب في بحوث الصوت ، واحاطوا بالمعلومات الاساسية فيه ، وقالوا : ان منشأ الاصوات حركة الاجسام المصوتة ، وان هذه الحركة تؤثر في الهواء الذي «لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة اجزائه يتخلل الاجسام كلها ، فاذا صدم جسم جسما آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل اتضعت حركته وتموجه الى ان يسكن ويضمحل » ٠

وطبق العرب مبادىء الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى ، وبرعوا في هذا الفن وقطعوا فيه شوطا بعيدا (الفارابي واختراعه آلة القانون) ٠

واما البصريات ، فقد وصلوا الى درجة رفيعة ، ويمكن القول ان علما من علمائهم (ابن الهيثم ٩٦٥ ــ ١٠٣٩ م)

قلب الاوضاع القديمة ، وانشأ علما جديدا ، ابطل فيه علم المناظر الذي وضعه اليونان ، وانشأ علم الضوء الحديث، وان اثره في الضوء لا يقل عن اثر نيوتن في الميكانيك ، وابن الهيثم اول من خطأ نظرية اقليدس وغيره في ان شعاع الضوء ينبعث من العين ويقع على الشيء المبصر ، وقرر عكس هذه النظرية ، أي قرر ان شعاع الضوء يخرج من الشيء المبصر ويقع على العين ، وبحث هذا العالم في انعكاس الضوء وقوانينه ، وشرح تكون الصور في المرايا المستوية ، وبحث في ظاهرة انكسار الضوء ، وشرح حدوث الرؤية ، وبين في ذلك تركيب العين وما يؤديه كل جزء من اجزائها من الاعمال ، وعالج موضوع العدسات وقوة تكبيرها • ويعد ما كتبه في ذلك تمهيدا لاستخدام العدسات لاصلاح عيوب العين • كل هذا وغيره من البحوث الضوئية عالجه ابن الهيثم بطرق تقرب من الطرق الحديثة الى حد بعيد •

في الكيمياء :

بدأ هذا العلم عند العرب في القرن الثامن الميلادي، واخذ يرتقي حتى وصل الى عصره الذهبي في خلال ثلاثة قرون ، والرأي عند الباحثين ان العرب هم اول من مارس الكيمياء بالمعنى الحديث ، وقد اشتهر منهم في ذلك جابر بن حيان (٧٢٠ ـ ٨١٣ م) واول من استحضر حامض الكبريتيك بتقطيرة الشبة وسماه « زيت الزاج » والى هذا العالم يعزي استحضار حامض النتريك او الازوتيك ، ويستعمل في صنع المفرقعات والسماد الصناعي ، وهو اول من استحضر ماء الذهب بمزجه حامض الايدروكلوريك بحامض الكبريتيك ، وتمكن من اذابة الذهب ملك المعادن كما انه اول من اكتشف الصودا الكاوية بغليه كربونات الصوديوم مع الجير ،هي تستعمل في صناعة الصابون والورق والحرير ، كما استخرج كذلك كربونات البوتاسيوم •

ولم يهمل جابر بن حيان التطبيقات العملية فيشؤون الانسان الحيوية ، فاستطاع ان يكشف عن اشياء كثيرة منها:

ـ تحضير نوع من الطلاء يمنع الحديد من الصدأ •

ـ تشميع الانسجة لجعلها غير منفذة للماء •

ـ تحضير نوع من المداد للمخطوطات اليدوية الثمينة

ـ صناعة الورنيش • (الطلاء الشفاف)

ـ صناعة صبغة للشعر باللون الاسود •

في الطب :

جاء في كتاب تطور الطب للسير وليم ارسلر : « بان العرب اشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت مهنة الطب عندهم في اثناء القرن الثامن الى القرن الحادي عشر للميلاد من المكانة والاهمية مالا تكاد تجد له مثيلا في التاريخ » •

عكف العرب على دراسة ما اخرجه اليونان والهنود في الطب ، واصلحوا بعضه ، ثم زادوا عليه زيادات هامة، يقول عنها كتاب تراث الاسلام : ان العرب زادوا على الطب اليوناني كثيرا ، وزيادتهم فيه مبنية على التجربة اي انها كانت عملية •

وقد ظهر لهم فيه مؤلفات نفيسة كالقانون لابن سينا، وكتاب الحاوي للرازي وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف والجراحة لابي القاسم الزهراوي الاندلسي ، وكتاب الكليات لابن رشد ، ولقد استفاد الافرنج من هذا الكتاب في نهضتهم فائدة كبرى ، وبقي بعض المؤلفات الطبية العربية يدرس في جامعات اوروبة حتى القرن الثامن عشر للميلاد •

ولم يقتصر الطب على الرجال فقط ، بل نبغ فيه من النساء عدد غير قليل كأختي الحفيد ابن زهر الاندلسي •

ولقد اتقن الاطباء العرب فن التفريق بين الامراض، ووضعوا لاول مرة وصفا دقيقا للكثير منها ، كما درسوا علم التشريح وعرفوا وظائف الاعضاء • وشخصوا الامراض وانذروا بنتائجها واجروا العمليات الجراحية ، وكانوا اول من استخدم المخدر في الطب، واول من استخدم الاوتار الجلدية في تخييط الجروح ، وقد اخذوها من امعاء القطط والحيوانات الاخرى •

هذا قليل من كثير مما يمكن ذكره ، وهو يدل باجلى بيان على فضل العرب في تلك الاجيال الغابرة ، واجتهادهم

وحفظ مصباح المعارف مضيئا زمنا طويلا الى ان تسلمه عنهم الغربيون ٠

العرب واسلوب البحث العلمي :

اذا رجعنا الى التحديد الذي عرفنا به العلم في مطلع هذا البحث ، وجدنا انه ، من حيث الاسلوب ، يرتكز على عدة مبادىء اهمها : الاستقراء ، والقياس والدقة والاعتماد على التجربة والاختبار والمشاهدة والتمثيل ٠

وبمراجعتنا آثار العرب العلمية نجد انه قد ظهر من بين العلماء العرب من دعا الى الدقة في العمل واجراء التجارب والاحتياط في الاستنتاج ، فقد قال جابر بن حيان بالاهتمام بالتجربة ، وحث على اجرائها مع دقة الملاحظة ، كما دعى الى التأني وترك العجلة ، وابان ان من واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل واجراء التجربة ، وان المعرفة لا تحصل الا بها ، وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية الا يحاولوا عمل شيء مستحيل او عديم النفع ، وعليهم ان يعرفوا السبب في اجراء العملية ، وان يفهموا التعليمات جيدا ، وان لكل صنعة اساليبها الفنية على حد قوله ٠

وكان لجابر هذا فضل كبير على من اتى بعده من كيميائي العرب ، حتى ان بعض العلماء منهم اعتبروا الكتابة غير دقيقة ان لم يسبقها تجارب ٠ قال الجلدكي علي ابو عز الدين ١٣٣٩ م عن الطغرائي : «كان الطغرائي رجلا على جانب عظيم من الذكاء ، ولكنه لم يعمل الا قليلا من التجارب ، وهذا امر يجعل كتاباته غير دقيقة ٠٠ »

ومن علماء العرب من سار في كتاباته على الشك والتجربة ، وهما الركنان اللذان قامت عليهما النهضة الحديثة في اوروبة ، فاعتبر الشك اساسا للبحث ، فقد قال النظام (توفي ٨٣٥ م) في هذا الصدد : « الشك اقرب اليك من الجد » ، وقد استخدم التجربة كما يستخدمها الآن الطبيعي والكيميائي في مختبره ، وللجاحظ في كتابه «الحيوان» مواقف عديدة ، يتبع فيها النهج القائم على الشك والتجربة قبل الايمان واليقين ٠

وحين نتوسع في المراجعة نجد الامر عند العرب لم يتوقف عند هذه الحدود ، فقد وجد بين علمائهم من كشف عناصر الطريقة العلمية الحديثة التي تميز هذه الحضارة من الحضارات التي سبقتها ٠ فابن الهيثم قد ادرك الطريقة المثلى في ذلك ، وقال بالاخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على المنوال المتبع في البحوث العلمية ٠ ففي كتابه « المناظر » عند البحث مثلا في كيفية الابصار واختلاف العلماء فيه ، يقول :

(ونبتدىء في البحث في استقراء الموجودات ، وتصفح احوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس ٠ ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدبيج والتدريب ، مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الاراء ٠ » الى ان يقول : (ولعللنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذي به يثلج الصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف آلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها موارد الشبهات ٠٠ وما نحن مع ذلك برء مما هو طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ومن الله نستمد العون في جميع الامور) ٠٠

ومن اقوال ابن الهيثم هذه تتجلى لنا الخطة التي كان يسير عليها في بحوثه ، وان غرضه في جميع ما يستقر به ويتصفحه « استعمال العدل لا اتباع الهوى » وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة وبين ان الاسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي ، فقواعده التجرد عن الهوى ، والانصاف بين الاراء ، فيكون قد سبق علماء هذا العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي ، وكان يرى في الطريق المؤدي الى الحق والحقيقة ما يثلج الصدر ، على حد تعبيره ، وهذا ما يراه باحثوا هذا العصر من رواد الحقيقة العاملين على اظهار الحق ٠ فان وصلوا الى ذلك فهذ غاية ما يرغون ويؤملون ٠

احمد ابو سعد

تراثنا في ضوء الأحداث التاريخية

الحبيب المكي .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة المتواضعة الى توضيح ما يلي :

١ ـ ان الحركة الاستعمارية التي تمثلت في غزو الشعوب والاستحواذ على طاقاتها المادية والبشرية واكبتها حركة فكرية قصدها دعم تلك الحركة الاستعمارية بافساد عقلية أبناء تلك الشعوب وتكوينهم تكوينا يجعلهم فريسة للعقد النفسية والاغتراب الثقافي فيقبلون ذلهم عن طواعية باعتباره منطق التاريخ والحضارة ، وحتى ان قاوموا وجوده المادي المباشر فلم يتجاوزوا ذلك النواحي المعنوية المتمثلة في الجانب الفكري والثقافي .

٢ ـ ان قضية التخلف والتقدم لدى الشعوب لا تفسر بـ « الطبائع » الثابتة عندها بل كلاهما نتاج ظروف تاريخية : اجتماعية ـ اقتصادية وفكرية متشعبة الجوانب .

٣ ـ ان حركة التاريخ في صيرورتها الدائمة يحكمها الاتجاه الى المستقبل تحت وطأة مشكلات الحاضر التي هي الامتداد التلقائي للظروف الماضية سواء أكان ذلك على المستوى النوعي أو العالمي طبقا لقانون جدلي محدد ، وهذا هو الجانب الموضوعي من القضية أما العامل الذاتي فهو المتمثل في القدرة على الادراك العلمي للقوانين المتحكمة في تلك الحركة في مرحلة تاريخية معينة لان ذلك وحده هو الذي يتدخل في توجيه المسار التاريخي في الاتجاه المرجو والا سقطنا في مفاهيم «الحتمية» بأنواعها . بهذا التصور فقط يكون للبحث التراثي هدف ومعنى .

٤ ـ ان امكانية التطور لا تنبع من تقديس الماضي لذاته لا لشيء الا لكونه ماضيا بل تكمن في فهم واع لامكانيات التراث المساعدة على التخلص من التخلف بكل أشكاله وأنماطه ، فالمثقف الثوري هو الذي يعي أين تكمن العناصر الايجابية والسلبية في التراث، وهذا بدوره يحتاج الى منهج علمي رصين يبعد الدارس عن الذاتية العاطفية والانفعالية كلما طرحت قضية حساسة للبحث .

نشأة الحركة الاستعمارية وتطورها :

لقد مهدت الكشوف الجغرافية في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر لبروز الاستعمار البرتغالي ثم الاسباني للعوامل التالية :

١ – موقعها في افريقيا ، ومن افريقيا يمكنها من المغامرة جنوبا في المحيط الاطلسي .

٢ – الرغبة الصليبية الكامنة في الانتقام من الاسلام بتطويقه والالتفاف من حوله .

٣ – الرغبة الشديدة في انتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول الى جزيرة التوابل بالدوران حول اليابس الافريقي أي بطريق بحري بديل .

٤ – ظهور كل من الاستعماريين : البرتغالي والاسباني اولا كاستعمار كاتوليكي وبقاؤهما طويلا كذلك فيما بعد . يؤكد هذا أن البابوية باركت أكثر من مرة أمتلاك الاسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه خارج « العالم المسيحي » وقد كان انهيار الدولة العربية، الذي مهد الطريق للاحتلال التركي المتمثل في آل عثمان ، سببا لتوسع البرتغال واسبانيا على حساب العرب تجاريا واستراتيجيا : وبصورة عامة يعتبر القرن السادس عشر قرن السيادة البرتغالية – الاسبانية الذي فتح الباب لهولندا ، التي أصبحت دولة بحرية قوية ، تفتش عن مناطق نفوذ .

واذا كان الانقلاب التجاري قد كشف عالما جديدا ، فان الانقلاب الصناعي خلق بدوره عالما جديدا . فمكاسب المستعمرات والاقتصاديات التجارية الجديدة كونت في اوروبا البيئة والمناخ والظروف الملائمة لظهور الانقلاب الصناعي الذي بدأ في انكلترا حوالي ١٨٢٠ وانتقل الى فرنسا ١٨٣٠ لينتشر بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن نفسه ، وقد خلق هذا الوضع نمطا اقتصاديا جديدا وعلاقات اجتماعية اقتصادية جديدة ، كما خلق علما وفنا وتكنولوجيا متطورة . وانتجت هذه الثورة الصناعية الجبارة تحولات عميقة اصابت البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بلدانها وقربت المسافات بين نواحي الكرة الارضية فتقلص العالم حتى كاد يصبح بيتا واحدا لاسرة واحدة رغم اختلاف ألوان وطبائع وميول وأصول وثقافات أفرادها . واذا كان الاستعمار – كما يقول الدكتور جمال حمدان – قديما هو صراع الرعاة مع الزراع ، فانه تحول بعد الانقلاب الصناعي والثورة العلمية الى صراع بين الصناع والرعاة بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية بل بين العصر الصناعي والعصر الحجري أحيانا فاتسع بذلك الفارق بين أنموذجين للانسان في هذا الكون . وهكذا اتسم القرن التاسع عشر بأنه قرن التطور الرأسمالي على المستوى الاقتصادي والتطور التكنولوجي والعلمي على مستوى الابتكار والاختراع فظهر اقتصاد مفتوح الشهية بل حاد الشهوة كما يضيف الدكتور حمدان . واشتد الانتاج بالجملة ليباع بشراهة وانتهى ما يعرف باقتصاد الاكتفاء الذاتي وأصبح متعذرا على مجتمع ما أن يوفر مقومات وعناصر صناعية داخل حدوده وكل هذا أدى حتميا الى البحث عن موارد الخامات وأسواق تصريف البضائع المصنوعة منها . وكلما ازداد تطور النظم الرأسمالية الاوروبية كلما اشتدت روح التنافس والتملك والتوسع وبرزت بسبب ذلك طبقات اجتماعية متعارضة المصالح والاهداف تتمثل في من يملك ومن لا يملك : الطبقات الكادحة وأصحاب رؤوس الاموال بين البروليتاريا والبرجوازية ، ولم تكتف الرأسمالية الغربية بذلك بل خلقت صراعات سياسية بين طبقات متناحرة بين الدول المختلفة ممن يملكون ولهذا يعد الاستعمار بحق أعلى مراحل الرأسمالية كما قال لينين لقد فشلت أوروبا في التغلب والسيطرة على العالم العربي بحضارتها التجارية لعوامل حضارية تتمثل في :

آ – انتماء العرب الى حضارة عريقة وتراث فكري : علمي وفلسفي وفني كان الاساس في قيام النهضة الاوروبية .

ب – ما لهم من قوة لا يستهان بها ولو أنها في طور انحدارها على العكس من ذلك نلاحظ أن الهند وجزرها فشلت أمام الضغوط الاوروبية المتزايدة ، ولكن ما أن تحولت اوروبا الى حضارة الصناعة حتى سهل اخضاع العالم العربي كغيره .

تلك حقائق تاريخية عن الحركة الاستعمارية الغربية منذ بدايتها حتى تطوراتها في القرن الماضي ، ولم تكتف هذه الحركة باحتلال ما يسمى « العالم الثالث » اليوم والسيطرة على أراضيه وموارده بل سعت بكل جدية وشيطانية الى ابتكار وسائل فكرية للسيطرة على عقول أبنائه ممن تمكن من الدراسة والثقافة وحصل له زاد علمي معين . فكانت تلك النظريات العنصرية الكثيرة ، المختفية وراء ستار « العلمية » ، التي انتجها العقل الاستعماري . ولكلمة « العلمية » تأثير سحري في نفوس شباب عربي بهره ما أنجزه الغرب في كل الميادين ، متطلع الى بناء أمة متقدمة ناهضة فوقع الكثير من الشباب العربي تحت سيطرة الفكر الغربي وانقاد بسهولة لكل ما يمليه عليه هذا الفكر دون تمحيص أو نقد . ولعل المرحلة الاولى من احتكاكنا الحديث بالحضارة الغربية قد تميز باندفاع نحو كل صيحة ثقافية أو فكرية أو فنية ... الخ تحدث في اوروبا وكأنها اشارة الخلاص المنتظر ، ولعل الآن قد بدأت تلوح في الافق آمال بناء انسان واع يعرف ما يأخذ وكيف يأخذ . وهذه بعض النماذج من التفكير الغربي العنصري في نواح مختلفة من ميادين النشاط الذهني .

١ ـ في المجال اللغوي :

أدت البحوث اللغوية عند المتخصصين في هذا الميدان الى القول بوجود جنس « آري » وجنس « سامي » لكل منهما خصائص جسمية وعقلية متميزة عما عند الآخر وفي سنة ١٧٨٨ تفطن العالم اللغوي (Jones) الى ما يوجد من تشابه بين اللغات التالية : السنسكريتية ، اليونانية ، اللاتينية ، الالمانية ، والسلتية ، فجعله ذلك يعتقد في وجود لغة أصل لهاته اللغات وفي سنة ١٨١٣ أطلق على هذا الاصل الموحد اسم « الهند اوروبية » العالم توماس يونج (Thomas Young) وأطلق فيما بعد على متكلمي هذا الاصل المشترك في التاريخ البعيد اسم الجنس « الآري » وهكذا تكون هذه اللغات لغات ثقافة وعلم وفن لان اصحابها من ذا الجنس المتميز المتفرد . وتكون اللغات السامية ومنها العربية بصورة خاصة لغات تخلف وانحطاط ، واذا اراد أهلها التقدم والتخلص من عصورهم الوسطى والدخول الى عصور التنوير فما عليهم الا أن يتخلوا عنها ويستبدلوها باحدى اللغات الاوروبية المتقدمة . وقد تعرضنا لامثلة لبعض المثقفين العرب وأساتذتهم من المستشرقين من قبل وما نقوله الآن هو أن البحث العلمي الرصين كشف عن تهافت هذا المنطق كما كشفت عن تهافته تجارب شعوب كثيرة تقدمت رغم تخلف لغتها أو تخلفت رغم تطور لغتها

٢ ـ في المجال الفلسفي :

كان القرن التاسع عشر مرتعا خصبا لظهور بذور عنصرية علمية وفلسفية وكان الفرنسيون ـ مع الاسف الشديد ـ من أوائل الذين سهروا على بذر هذه البذور ورعايتها والسهر على نشرها وامتدت آثار هذه النزعة الغربية حتى هذا القرن . فقد صرح زعيم العنصرية « ارنست رينان (Ernest Renan) بأفضلية الجنس «الآري» على الجنس « السامي » وكان لهذا الرأي تأثير قوي في الاوساط الغربية . والذي ساعد هذا المفكر الفرنسي الكبير هو أطلاعه الواسع على اللغات السامية والتراث الاسلامي والشرقي بصورة عامة . وسار على نهجه فرنسي آخر هو ليون غوتيي (Léon Gauhier) (كان استاذ فلسفة بجامعة الجزائر وهو الذي حقق كتاب (فصل المقال لابن رشد) . قال هذا الرجل بوجود عقل سامي وعقل آري في بداية هذا القرن وعنده أن « العقل السامي لا طاقة له الا على ادراك الجزئيات والمفردات منفصل بعضها عن بعض أو مجتمعة في غير ما تناسب ولا انسجام ولا تناسق ولا ارتباط فهو عقل مباعدة وتفريق (Esprit séparatiste) لا جمع وتأليف . أما العقل الآري فعلى عكس ذلك يؤلف بين الاشياء بوسائط تدريجية ، لا يتخطى واحدا منها الى غيره الا على سلم متداني الدرج لا يكاد يحس التنقل فيه، فهو عقب تجميع ومزج (Esprit fustonniste)

فمن العبث أو الخرافة القول بأن العرب كان لهم فكر وكان لهم قدرة على استخلاص القوانين ووضع الفروض والنظريات بحكم طبيعتهم السامية تلك أولا ، وبسبب

الاسلام الذي حدد من آفاق تفكيرهم ثانيا • فقد انتزع الاسلام من بينهم كل بحث نظري وأضحى المسلم في رأي رينان يحتقر العلم والفلسفة • ومن الجدير بالذكر أن المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) قد بين في كتابه (الاسلام والرأسمالية) (تعريب نزيه الحكيم طبعة دار الطليعة ١٩٦٨) كيف أن الرأسمالية كنظام اقتصادي نشأت في الغرب بسبب الجنوح الى العقلانية في تنظيم النشاط الاقتصادي والانساني وتساءل عن السبب الذي كان وراء اتجاه العالم المسيحي نحو الرأسمالية فتطور بها وسيطر على العالم بينما لم يتجه العالم الاسلامي اليها • فان قيل بأن الاسلام ضد العقل فهذا غير منطقي لما نجد من عديد الآيات التي تحث على استخدام العقل وان قيل بسبب تحريم الاسلام للربا الذي يعد حجر الزاوية في التراكم المالي أي رأس المال فان التحريم وارد في العهدين : القديم والجديد ، وليس هذا مما يدخل في بحثنا ولكن اوردناه لنشير بان الفكر المادي الجدلي نفسه لم ينف عن الاسلام العقلانية التي كان نفاها عنه رينان كلية ورددها تلاميذه عربا واوروبيين ولقد وقع رينان في التناقض حينما اعتقد بأن الفلسفة الاسلامية او العربية (كما يظهر للبعض أن يسميها بذلك) هي فلسفة يونانية مكتوبة بأحرف عربية ذلك لان العرب والمسلمين لم يكتفوا بشرح ونقل التراث اليوناني العلمي منه والفلسفي بل أضافوا له وزادوا عليه (ابن سينا ، الغزالي ، ابن رشد ، البيروني ، ابن الهيثم •••• الخ) •

ورينان نفسه يعترف بأن الفلسفة الاسلامية الحقة توجد في علم الكلام وقد تكفل رجال مخلصون للحقيقة ، منصفون للبحث العلمي بالرد على رينان وغيره • يمكن تلخيص أفكارهم فيما يلي :

١ ـ ليس هناك أساس علمي لتفسير نشأة الحضارات وتطورها على أساس عرقي •

٢ ـ لم يتوصل البحث في الاجناس حتى عصرنا هذا رغم تطور المناهج ووسائل الاتصال الى وضع نظرية دقيقة لتمييز الاجناس المختلفة ، والسبب واضح لان اختلاط البشر قديما وحديثا جعل من الصعب البت في ذلك وكلنا يعرف ما جرته مثل هذه النزعات العنصرية من ويلات على الانسانية •

٣ ـ لعله من الثابت علميا ان التقدم الحضاري يرجع الى الشعوب التي اختلطت فيها الاجناس كما انه ليس هناك دليلا ماديا على أن شعبا ما استطاع بمعزل عن الاجناس الاخرى ان ينتج حضارة حقيقية وأصلية • فالتأثر والتأثير قانون جدلي يحكم الاشياء والظواهر في الكون كله •

٤ ـ ان الحضارة الاوروبية الحديثة التي دفعت بالغربيين الى الشعور بمركب من الاستعلاء والتفوق والامتياز كان منبعها ومواردها بغداد والاندلس وصقلية ومنافذ اخرى كثيرة •

٥ ـ ان الحضارات الشرقية كانت صانعة التطور الانساني لانها أعرق وأقدم الحضارات الانسانية عندما لم يكن لاوروبا وجود • وحتى التراث اليوناني لم يعرفه الغربيون الا عن طريق التحليل والشرح والترجمة العربية (شروح ابن رشد لارسطو مثلا) •

٦ ـ وحينما بدأ الفكر العربي مرحلة الترجمة للفكر اليوناني والهندي والفارسي أين كان الفكر الاوروبي وأين كان امتيازه وتفوقه •

يقول الفيلسوف الانكليزي جون ستيوارت ميل (Jhon Stuart Mill) (ان رد الفروق التي تشاهد بين الامم الى ما في طبائعها من اختلاف انما هو من نوع التهرب ، هو التهرب من درس الاحوال الاجتماعية وتحري عواملها الاساسية •

ويقول العالم الاجتماعي ريبليه (Ripley) (لننبذ هذه الخرافة التي تعزو فضيلة خاصة او ذكاء خاصا الى جنس من الاجناس البشرية) ويقول الباحث الاجتماعي نوفيكوف « ان التعليل بطبيعة العرق انما هو بمثابة معطف سهل الاستعمال معطف نستعمله لنستر به جهلنا وكسلنا الذهني ، لنستر به جهلنا لحقائق الاشياء وكسلنا عن تحري الاسباب » •

في المجال الاجتماعي والسياسي :

يعتقد أغلب المؤرخين للحضارة الاوروبية بأنها نتجت عن تفاعل عناصر ثلاثة من الماضي هي التي حددت خصائصها الكلية في مقابل الحضارات الاخرى الشرقية ٠

آ ـ العهد القديم والجديد اللذان يقدمان تفسيرا لموقف الانسان من الحياة والخلق وما نتج عنهما من صياغة لنظريات وعقائد ومراسم وطقوس قامت كلها بدور كبير في حياة الغرب خلال مختلف مراحل تطوره التاريخي وقد أخذ الاوروبيون ذلك عن بني اسرائيل فهؤلاء عنصر من عناصر الحضارة الاوروبية الحديثة ٠

ب ـ فكرة الدولة والتشريع والقانون بمعناه التنظيمي المحدد للعلاقات بين السلطان والرعية وما يجب ان تكون عليه العلاقات بين الحاكم والمحكوم وما يتصل بكل ذلك من حقوق مدنية وتشريعية في كل الميادين وهذا هو العنصر الثاني من عناصر الحضارة الاوروبية أخذه الاوروبيين عن الرومان ٠

ج ـ مبدأ الديمقراطية ٠ على أساس هذا المبدأ اعترف للفرد بشخصيته وحقه في التعبير في حين أن الشعوب الاخرى لم تعترف لهذا الفرد بوجود بجانب السلطة الالاهية للملوك وقد اتخذ المؤرخون من أقدم شعبين متحضرين في التاريخ القديم : مصر وفارس من ناحية والاغريق الذين اتصلوا بهم من ناحية ثانية ، محورا للمقارنة ويلاحظ من دراسة احوال تلك المجتمعات القديمة غياب شخصية الفرد بل موته بسبب طغيان واستبداد الملوك ودولهم التيوقراطية في الحضارتين العظيمتين : المصرية والفارسية ٠ وهنا نأتي الى العنصر الثالث الذي أثر في الحضارة الاوروبية الحديثة وهم الاغريق المصدر الاول لظهور الديمقراطية في العالم ٠

د ـ في المجال الديني :

ان مفهوم الدين يختلف بين اليونان وتينك الحضارتين ٠

١ ـ الآلهة عند الاغريق يشبونهم اذ لهم عواطف وتقع بينهم خلافات ونقاش كما هو الحال تماما عند البشر يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي « فالنظرة الى الكون والنظر الى الحياة العملية والنظرة الى الدين كل تلك النظرات كانت الروح اليونانية تحاول فيها أن تتحرر من قيود الطبيعة الخارجية ٠ فنراها في الدين مثلا تنزل الآلهة الذين هم قوى طبيعية فوق الانسان الى جبل الاولمب وهذه الآلهة كما سنرى فيما بعد آلهة انسانية صرفة تخضع لما يخضع له الانسان وتتأثر في وجودها بما يتأثر به الوجود الانساني » ٠

٢ ـ كان الدين اليوناني يخدم الفرد في الدنيا بينما كان الدين عند تلك الشعوب الشرقية يصرف الانسان عن الدنيا (وان كان ماركس فيما بعد قد جعل كل الاديان تصرف الانسان عن الحياة وتلعب دور المسكن للاوجاع الناتجة عن الحرمان المادي والمعنوي ولهذا السبب كانت كلمته المشهورة : الدين أفيون الشعوب) ٠ الدين عند الاغريق حافز من حوافز العمل والكفاح بينما هو عند الآخرين هروب وفرار الى عالم آخر ـ عالم ما بعد الموت عالم السعادة الابدية ٠

٣ ـ وقد جاء هذا التصور المختلف بين الاغريق وشعوب الشرق القديم بسبب اكتشاف الاولين لمبدأ الديمقراطية في الحكم وهو المبدأ القائم على احترام الفرد والاعتراف له بشخصيته في الوجود الامر الذي لم يعرفه أهل الشرق ٠

مناقشة هذه الآراء :

١ ـ اذا كانت النظم السياسية الغربية وريثة الديمقراطية اليونانية فاننا نتساءل لماذا لم يستمر النظام الاثيني مطبقا في الغرب عبر التاريخ الروماني والعصور الوسطى التي سيطر فيها الفكر الكنسي المغلق وسادت فيها محاكم التفتيش المعروفة التي كانت تطارد أحرار الفكر ورجال العلم (لعل محاكمة غاليلي كافية للتدليل على اضطهاد الكنيسة للفكر العلمي) ٠ وقد كانت الكنيسة تملك قائمة من الكتب التي تحرم قراءتها والويل لمن يعثر عنده على واحد منها ٠

٢ – ان المنطق يفرض أن تكون الدولة البيزنطية وهي أقرب الى الغرب جغرافيا ولغويا وتاريخيا مثالا للدولة الديمقراطية بل الثابت في التاريخ أن حكمها كان ثيوقراطيا حتى أن بعض أباطرتها ادعى الالوهية •

٣ – ممارسة الحكام ورجال الدين في القرون الوسطى في الدول الاوروبية كانت ممارسة اضطهاد واستغلال للشعوب حتى عصفت بهم الثورة الفرنسية ذات المضمون البورجوازي الثوري والتي آل أمرها الى ديمقراطية يحكمها رأس المال والاستغلال فبقيت ديمقراطية شكل دون مضمون حقيقي • كل هذه الملاحظات تشهد بتعطيل تأثير التراث اليوناني في أوروبا وحتى بعض المدن اليونانية الاخرى التي شهد أهلها تجربة أثنيا الرائدة •

ولقد كان عصر الرسول عليه السلام وحتى نهاية عصر الخليفة الثاني مثالا للديمقراطية شعارا وممارسة اعتمادا على مبدأ الشورى فلماذا لم يستمر هذا المبدأ بحكم حتمية التاريخ أو حتمية تأثير الماضي في الحاضر أو وراثة الحاضر والمستقبل لصفات الماضي •

لو أخذنا بهذا المفهوم الغربي لكان معناه أن الاوروبي سيبقى وريث الديمقراطية الى الابد فكرا وممارسة وسيبقى الشرقي وريث الحكم الاستبدادي والطغياني الى الابد فكرا وممارسة • ولو أخذنا بهذا المفهوم لكان معناه القول بسيطرة الماضي على الحاضر • ان الحقيقة تقول وان الديمقراطية لم تكن امتدادا لليونان ولا لغيرهم او بسبب الاطلاع على تراث الاغريق السياسي والاجتماعي في القرن الخامس قبل الميلاد او القرن الاول للهجرة • لقد نشأت الديمقراطية استجابة لواقع اجتماعي واقتصادي وحضاري لم تكن تعرفه اوروبا من قبل • ان المشكلات الجديدة المتولدة عن التطور التاريخي حتمت هذا الشكل من التنظيم السياسي وتحديد سلطة الحاكم واشكال ممارسة الانسان لحقه الطبيعي في الحياة والمشاركة • ولما رجع المفكرون الى الماضي وجدوا تماثلا بين هذا الشكل السياسي للتنظيم الاجتماعي وبين نظام أثينا فكان اعجابهم بمرحلة تاريخية يعتبرون أنفسهم من ورثتها وكان كلامهم عنها كلاما نظريا أكاديميا • ان انتقال اوروبا من عصر الاقطاع الى عصر الرأسمالية أثر في بنائها الاقتصادي والاجتماعي فظهرت كتابات مونتسكيو وغيره عن الفصل بين السلطات وتحديدها وتنويع الحقوق والواجبات فلم تكن الديمقراطية وليدة تحقيقات تراثية او دراسات أكاديمية بل الملاحظ غالبا أن جهد المؤرخين يكون تبريرا للواقع او برهانا عليه • ولمزيد التوضيح لهذه الفكرة أعود الى ما قام به المفكرون العرب المعاصرون لنرى كيف كان رجوعهم الى الماضي يتحدد طبقا للتحولات الاجتماعية والاقتصادية في أقطارهم وطبقا للتأثير الغربي الحضاري في مجتمعاتهم •

لقد كان للاحتكاك بين الشرق والغرب الذي نشأ منذ حملة بونابارت ١٧٩٨ م وبالذات بعد قيام دولة محمد علي العصرية (لانها فتحت النوافذ على العالم الخارجي) أن ظهر تيار فكري ليبرالي اسلامي له قسمات من تأثير الغرب برز ذلك عند زعماء الاصلاح فقد نادى حسن بن محمد العطار (١٧٦٦ – ١٨٣٥) الى ضرورة التغيير بالاخذ عن أوروبا العلوم التي يحتاج اليها الشرق العربي • واهتم محمد علي بارسال البعثات التعليمية الى فرنسا وانكلترا وايطاليا وطالب المبعوثين بعد عودتهم بنقل معارفهم الى الناس فقاموا بترجمة نحو الفي كتاب ونشرة علمية وأمر بقراءة أول كتاب عن أوروبا « تلخيص الابريز » لرفاعة طهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٢) في جميع المدارس وكان هذا الرجل نموذج المثقف الليبرالي الذي أثمرته سياسة محمد علي التعليمية اذ عالج في كتابه « مناهج الالباب » كل جوانب الاصلاح الاجتماعي ودعا المواطنين للتفريق بين أخوة الدين وأخوة الوطن • وناقش حقوق وواجبات الحكام ونادى بأن يكون « الحكم بالكلية للرعية » وانه « لا حاجة للملك أصلا » وأن « الامة يجب أن توكل عنها من تختاره للحكم » وشجع على الاجتهاد لتكون الامة في مستوى الممارسة الحديثة لشؤونها وأوضح أن الشريعة الاسلامية تفيد في تعليم المبادىء الاجتماعية وأن

الاحتياجات الاقتصادية للتطور الحضاري العصري تجعل من الضروري الاستفادة من القوانين التجارية والتشريعـــات الاوروبية وانتقد الازهر لابتعاده عــن دراسة المواضيــع العلمانية وأكد أن انعاش الحركة الثقافية في الازهر رهن بدراسة الفنون الحديثة للادارة والحكم ومختلف العلوم الاوروبية الحديثة أما من حيث أفكاره السياسية في كتابه المذكور فانها تتلخص في :

١ ــ تثبيت القومية المصرية ٠

٢ــ تثبيت فكرة الدولة العلمانية أو الزمنية

٣ ــتثبيت مقومات المجتمع البورجوازي التقدمي سياسيا واقتصاديا ٠ واستمر هذا التيار الفكري الليبرالي المتأثر بالليبرالية الغربية على يد الافغاني ومحمد عبده وغيرهما وأهم قسمات هذا الاتجاه الذي قاده الافغانـــي هـــي ٠

١ ــ العقلانية : نقد أهل النقل والمتبعين لظواهر النصوص وحفظ المتون والملخصات دون وعـــي ، او الموسوعات التي تجمع أشتات ما دونه القدماء دون اضافة جديد أو ابداع وابتكار كما كان الحال من قبل عندالمسلمين الاولين ٠ (راجع نماذج من ذلك في كتاب تجديد الفكر العربي٠ د ٠زكي نجيب محمود) ٠

٢ ــ النزعة التحررية : مواجهة الحكم الاستبدادي الفردي الذي ساد الشرق قرونا ٠

٣ ــ العلمانية :وقعت مواجهة ما تراكم عــلى الاسلام من قيم وأفكار بعيدة عن أصوله الجوهرية كنظرية الحق الآلهي الاقطاعي والانظمة والطقوس التي تكاد تشابه الكهنوت الغريب عن جوهر الدين ٠

٤ ــ نقد النظام الطبقي المتوارث والثابت وهو النقد الموجه الى الارستقراطية التركية لان النظام التركـــي كان يمثل حجر عثرة امام صعود بورجوازية وطنية جديدة تحترم العمل وتنبذ البطالة وتسعى لان يكون الكســب والسعي والثروة هي المعايير المحددة للوضع الاجتماعـــي وليس النسب والحسب الموروث ولكن ــ كما يضيفالاستاذ محمد عمارة ــ بسبب ما في التراث الاسلامي من كتابات عند القدامى تتحدث عن الاموال والخروج وتفسر الايات القرآنية الاجتماعية بما من شأنه ان يناصر العدلوالتكامل الاجتماعيين فان الليبرالية الاسلامية كانت على يسارالفكر الليبرالي الغربي ٠ الا ان محمد عبده قد كان يمثـــل في نقطة سياسية فرقا بين الليبرالية الغربية والاسلامية تتمثل في ايمانه بالمستبد العادل الذي لا بد منه لحكمالشرق ودفعه نحو الصلاح ٠ ان الظروف التاريخية التي وضعت الشرق في موقف الاعجاب بالحياة الغربية في مختلــف جوانبها ودفعته الى البحث في تراثه الديني والفكري عما يتلاءم وتلك الحياة الجديدة هذه الظروف بالذات وضعت الشرق العربي الاسلامي مرة اخرى امام ما حدث بعد ١٩١٧ و ١٩٤٩ وهما التاريخان اللذان يرتبطان فياذهان البشر بانتصار الثورة الاشتراكية عمليا في كل من روسيا والصين وهو الامر الذي مهد له نضال طويل للفكـــر الاشتراكي الذي كشف عن فوضى وتعفن ولا اخلاقيةالنظام الرأسمالي المقام على استغلال الانسان لاخيه الانسان ٠ وهكذا وجد العالم نفسه موطنا للصراع بين كتلتين : راسمالية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية واشتراكيـــة بقيادة روسيا والصين وهكذا وجد العالم العربـــي والاسلامي بحكم موقعه الاستراتيجي وامتلاكه لتراث عظيم وبحكم صراعه مع الاستعمار المباشر (بريطانيا وفرنسا) الممثل لدول رأسمالية وصلت درجة الاحتكارية وجد نفسه مضطرا لربط استقلاله السياسي بتحول اجتماعـــي اقتصادي والا كان تحرره شكلا دون مضمون او حبرا على ورق وغير مستجيب لحركة التاريخ ، وبسبب هذا ظهرت تلك الاشتراكيات الكثيرة في مختلف البلاد العربيـــة والاسلامية ٠ واتجه التفكير النظري لصياغة نماذج من التوفيق بين الدين والاشتراكية الدين مبدأ يؤمن به المسلم والاشتراكية واقع ومستقبل تفرضه التحولات الداخلية والخارجية ٠ ولهذا السبب بالذات اصبح ابوذر الغفاري المثال للاشتراكيةولهذا السببالذات اعيد النظر في اراء

وافكار لحركات فكرية اسلامية كان ذكرها يختم باللغة كالمعتزلة (دفاعا عن العقلانية) والخوارج (دفاعا عن الديموقراطية) والقرامطةوثورة الزنج وغيرهما (دفاعا عن الاشتراكية) وبين يدي في مجلة « منبر الاسلام » مقال تحت عنوان (اشتراكيتنا الاسلامية هي الاشتراكية الام) للاستاذ عبد الغني الراجحي جاء فيه على سبيل المثال (ان الاشتراكية العربية بل والاشتراكيات العالمية الاخرى ما دامت في مناهجها واساليبها وقراراتها لاتتعارض مع اصل من اصول الاسلام فهي نفس الاشتراكية الاسلامية لانها مع روح الاسلام واهدافه وغاياته المنشودة ·ويضيف قائلا :

(فقد كره الاسلام أن يتمركز المال دولة بين الاغنياء وسماهم مستخلفين فيه وشرع الزكاة والكفارة والنفقة والوقف والوصية والنذور والاضاحي وتقسيم الفيء والخراج والغنائم وأعطيات بيت المال وكثيرا من صنوف البر والعون مبينا مصارف ذلك كله وقال « ان في المال حقا سوى الزكاة – وليس من المسلمين من بات شبعانا وجاره جائع – ولا يحتكر الا مخطىء ·· ومن لا يهمه شأن المسلمين فليس منهم ») ·

وفي عصر نزول القرآن وحياة الرسول كان في الاجمال الكفاية لانه كان في الحياة وأساليبها اجمال وبساطة وفي عصورنا الاخيرة هذه لا يغني اجمال عن تفصيل فقد انداحت دائرة الحياة وجدت للناس اقضية كما قال عمر بن عبد العزيز « – بقدر ما أحدثوا من مشكلات » نتيجة لاتساع دائرة الحياة وتعقدها وتشابك الامور فيها مشتجرة متصارعة فلا يجوز للاسلام أن يقف حيال ذلك مكتوف الايدي عاجزا عن أن يلاحق هذه المشكلات بالحلول بعد أن أنزله الله دينا متكفلا بمصالح العباد وسعادتهم في المعاش قبل المعاد » ·

وقد بين الاستاذ الراجحي أن الامور المباحة في الاسلام قد يعرض لها ما يجعلها حراما ممنوعا لمصلحة يراها الحاكم وولي الامر ضرورية للصالح العام الذي يجب التضحية في سبيله بالمصالح الفردية : ان في الاية الكريمة وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ما يعني أصلا اشتراكيا نستطيع بواسطته أن نعتبر أصحاب الاموال في أموالهم مستخلفين وكلاء عن الله فهو المالك الحقيقي للمال ·

والمال حق للمجتمع كله وبهذا يصرح الحديث القدسي الذي يقول الله فيه : المال مالي والاغنياء وكلائي ويقول الاستاذ صلاح عزام الى شباب أمتي وديني الذين يلهثون وراء طلائع رواد الاشتراكية وشهداء حرية الكلمة الشريفة من خلال شمس الغرب ونسوا أن صفحات تاريخنا المشرق العربي المسلم بالذات هي طلائع المجد نحو نور الحياة الساطع الذي بهر الدنيا وسيظل يبهرها ليدفعها نحو أجمل ما في الحياة « ثم يضيف » ولقد عانى أبوذر الغفاري في حياته من طبقة المنتفعين بدين الله ومن أرستقراطية العرب ورأسمالييها وعانى أيضا بعد مماته من بعض المتعربين الذين ظلموا دعوته لينفروا من تاريخه شباب المسلمين المتفتحين نحو الحق ·

وأرادوا ان ينسبوا اليه سببا من أسباب مقتل عثمان رضي الله عنه ثالث الخلفاء « أما سيد قطب فكتابه « العدالة الاجتماعية في الاسلام » الذي ألفه يعد نظرية الاخوان المسلمين في التغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كما أن كتاب « اشتراكية الاسلام » الذي ألفه الدكتور مصطفى السباعي السوري ونال به شهرة كبيرة و ذاع صيته حتى أنه وزع في مصر توزيعا شعبيا أضعاف توزيعه في بلد آخر دعا هذا المفكر العربي المسلم الى تطبيق الاشتراكية الاسلامية مشيرا الى أن التعاون والتضامن الاجتماعيين من مكونات الاسلام ويقول بأن النهضة الاوروبية هي من صنع الحضارة الاسلامية ثم يعطي رأيا في الاشتراكية مفاده أنها تمنع الفرد من تثمير رأس ماله في هدف واحد هو المزيد من الاثراء والربح على حساب بؤس الآخرين ولهذا فالاسلام له اعظم برنامج ثوري في التطبيق المباشر ومحصن من الامراض التي أنتجتها الايديولوجيات

الاشتراكية وهذا هو أساس الفقه الاسلامي منذ البداية ٠ ولا يفوتنا أن نذكر أن الدكتور أحمد خلف الله نشر مقالا في مجلة الكاتب القاهرية (تموز ١٩٦٠) تحت عنوان « المضامين الاشتراكية في القرآن » يشير فيه الى أن الدين الاسلامي هو أول أسس الاشتراكية العلمية العربية الرشيدة المؤمنة ويرى أن هذا النوع من الاشتراكية يرتكز على مبادىء منها الايمان بالله ٠

وهذا الدكتور صبحي صالح يقول في مؤلفه «المسيحية والاسلام في لبنان » بأنه « لاينفي شيئا مما زخرت به بطون المجلدات في فقهنا الاسلامي من اراء ناضجة في النظم الاقتصادية وقواعد العدالة الاجتماعية ومن ميل واضح الى ضرب من الاشتراكية المؤمنة البناءة التي لا تجحد قيم الروح » ويقول الدكتور حسن صعب في كتابه « الاسلام وقضايا العصر الاقتصادية والاجتماعية » ونعني مستهدفين المقاصد الالاهية لسعادة الانسان وخيره التي استخرجها علماء الاصول من كتاب الله كمقاصد للشرع في أي بناء قانوني أو سياسي أو اقتصادي او اجتماعي يبنيه الانسان وهي:

١ ـ المحافظة على النفس الانسانية وحمايتها ٠

٢ ـ المحافظة على الدين أي حرية الاعتقاد ٠

٣ ـ المحافظة على الاسرة ٠

٤ ـ المحافظة على العقل أو حرية الفكر وسموه ٠

٥ ـ المحافظة على المال أو على الملكية الشخصية الخلاقة للخير ٠ هذه هي مقاصد البناء التي أجمع علماؤنا على أن يلزمونا بها وأما أشكالها وتنظيماتها ووسائلها فنحن أحرار في أن نختار لها البنية التي تؤدي لتحقيق هذه المقاصد ٠

ويكتب أحد كبار الدارسين الشبان الجادين للتراث العربي الاسلامي وأكبر محقق لاعمال زعماء الاصلاح وهو الاستاذ محمد عمارة ما يلي « والشخصيات الثائرة التي أتعرض لحياتها ونضالها في هذا الكتاب تكون مجتمعة قضية كبرى من قضايا تراثنا العربي الاسلامي تقول بأن هذا التراث وهذا التاريخ رغم كثير من صفحاته المظلمة قد كان دائما حافلا بالعمل الثوري والموقف والكلمة الثورية على امتداد العصور وتنوع المدارس والمذاهب وفي مختلف حقول الفكر وميادين النشاط ٠ ففي عصر البعثة وصدر الاسلام نجد الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري يجسد لنا موقفا ثوريا من التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع بعد فتح المجتمعات الاقطاعية الزراعية الغنية في مصر والشام والعراق وبالذات في عهد عثمان ٠

وفي ظل الدولة الاموية يقدم لنا غيلان الدمشقي ونضاله موقفا ثوريا وفكرا ثوريا تمثل في مناهضته لفكر الجبر والجبرية الذي يبرر المظالم ويدعو للسكوت عليها والرضى بها وفي موقفه العملي أثناء مصادرة ممتلكات الاسرة الحاكمة على عهد عمر بن عبد العزيز ٠٠ ثم يجسد هذا الموقف الثوري عندما يقبض عليه ويحاكم ويصلب ٠٠

وفي عصر الدولة الايوبية والمماليك يتقدم العز بن عبد السلام من فوق أرضية فكرية محافظة، أرضية الاشعرية ليقود نضالا فكريا ثوريا ضد الجمود والتخلف وليقف بحزم وصلابة ضد الظلم والتفاوت بين الناس وضد البدع والانحرافات وضد الصليبيين والتتار ليصارع الظلمة والخونة من السلاطين والحكام ٠

ولا يفوتنا أن نذكر بما يكتب في المجال العلمي البحت بأقلام اسلامية تحاول التوفيق بين ما وصل اليه العلم من نظريات جديدة واكتشافات وبين آيات قرآنية من هنا وهناك تبرز أسبقية القرآن في الحديث عن تلك الاكتشافات والنظريات من هذه الاقلام يمكن أن نذكر د٠ مصطفى محمود في تفسيره العصري للقرآن الذي بيع منه حوالي ثمانين الف نسخة في مصر وهو رقم خيالي بالنسبة لقضية الطبع والنشر في افتتاحيات مجلة العلم التي يصدرها هو وبعض الاساتذة الآخرين ٠

ويعتمد كل هؤلاء الكتاب على مشابهات لفظية بسيطة في اثبات دعواهم ٠ وهكذا يتحول القرآن لديهم الى كتاب في علم الطبيعة أو الجيولوجيا أو التكنولوجيا الفضائية ٠

وهناك من يرفض مثل هذا الاتجاه في تحميل النص الديني ما لا طاقة له به كالدكتورة بنت الشاطىء لانها ترى أن الوظيفة الاخلاقية لا الوظيفة العملية هي الهدف الاساسي من النصوص الدينية ، واني لهذا الرأي الذي تدافع عنه بنت الشاطىء لاميل ٠

الموسيقى والأدب

هاني شموط

عزيزي القارىء ، لعلك تعلم أن الموسيقا هي مرآة حضارة ، وأن الشعر والغناء يعتبران مقياسا هاما في حياة الامم ، يعكسان صورة الرقي والاصالة ٠

ومن الامثلة المعاصرة أنه حينما جاء جون كنيدي ذات يوم زائرا موسكو ، لم يعرض السوفييت امامه صواريخهم ومحطاتهم الكهربائية والفضائية بل اختصروا كل ذلك وقدموا له ملخصا راقيا يدل على عظمة بلادهم ، دعوه الى حفلة موسيقية في قاعة «البولشوي» فشاهد هو ومرافقوه ذوو العيون المتفحصة الناقدة روائع فن الباليه ومنه باليه «بحيرة البجع»، ثم عرضت أوبرا «بوريس جودونوف» حيث بدا واضحا للضيوف أنهم في بلد راق متحضر وأن الامة التي يستطيع فنانوها برعاية حكومتهم ابداع وتقديم فن كهذا غاية في الرقي الانساني ، معنى ذلك أنها أمة تملك القدرة التكنولوجية في حقلي السلم والحرب ٠

وحينما ذهب خروتشوف الى الولايات المتحدة وشاهد بعض عروض المسرح من رقص وغناء ، أدرك هو ومن معه انه في بلاد مضطربة القوة٠٠ من خلال ما رآه ، بينما جاءت آراء النقاد وهم من غير الروس الضيوف ، لتضع الحقيقة في وضوح أكبر أجمعت تلك الآراء وقتها على أن الفن الذي قدم للضيوف كان فنا متغطرسا غير انساني من جهة ، وتخلله اسفاف من جهة أخرى مثل رقصات (الكان كان) الخليعة مما جعل زوجة خرتشوف تنأى بناظرها ، وتشيح بوجهها ، ويفتر فمها عن ابتسامة ازدراء أمام هذا الهوس الامريكي ، الذي لا يليق بضيف رسمي ولا يمثل البلد المضيف ٠

ولكن المصيبة الاكبر التي قد نستفيد من فحواها مع القارىء الكريم هنا ، هي أن بلدا مثل الولايات المتحدة، لم يكن ليخلو من فن وفنانين أصلاء ، حالت دون ظهورهم أداة التنفيذ الرأسمالية فتصرفت بحمق، حبا في اظهار الترف الرأسمالي البعيد عن خدمة الانسان ٠٠٠ وتلك مصيبة أسوأ من التخلف ذاته ٠

وحينما جاء نيكسون الى القاهرة ذات يوم هو ومن معه ، أراد مسؤولوا حكومة السادات وقتها أن يقدموا لضيفهم شيئا عن فن مصر ، فلم يقدموا اوركسترا القاهرة السمفوني مثلا ، تعزف الحان المؤلفين العرب أو فرقة الموسيقا العربية تؤدي اغاني من التراث العربي ٠٠ لم يفعلوا ذلك لان الفرقتين من منجزات الثورة ، بل رجعوا القهقري ، وأرادوا أن يقولوا لنيكسون وصحبه أنظر ٠٠ هانحن : راقصة عارية تهز أردافها ، تدفع بطنها جيئة وذهابا بلغة مخجلة مكشوفة ! ٠ ولم يكن هذا هو الفن المصري العربي الذي يدل عن مصر العربية بل كان صورة الحاكم نفسه بعقليته ٠٠ وتلك مصيبة أسوأ من التخلف ، ولكنها أعراض تشنج تزول من جسم الامة الاصيلة ٠

وفي بلدنا ٠٠ يسعى شبابنا الجادون في حقل فن الموسيقا باخلاص ، الى النهوض بفن بلدهم ويضعون الاقتراحات ويقدمون المشاريع المفيدة التي تحتاج الى التنفيذ من الجهات المختصة ٠٠ منها هو مشروع تأسيس (اوركسترا سيمفونية) أي فرقة موسيقية كاملة ، تقدم به شاب سوري عاش خارج القطر مدة سبعة عشر عاما ، جاء ليضع نفسه في خدمة وطنه ، بعد أن تزود بخبرة وفيرة في حقل الموسيقا ، وقيادة الاوركسترا ، وضمن مشروعه شروحا تدعو للتفاؤل ، فالاوركسترا ستكون ذات هدف فني وسياحي ، وستجني الدولة منها وفرا ماديا على المدى الطويل ، بالاضافة الى أنها تفسح المجال لفناني القطر من تقديم مؤلفاتهم الموسيقية الجادة ، التي ستكون خير دعاية لنا أمام العالم ، كدليل حضاري ينافس تسلط العدو الكاذب بفنه الهجين المصطنع اللقيط ٠

تقدم هذا الفنان واسمه نوري رحيباني بمشروعه هذا ، الى وزارة الثقافة ، ولكن أنى له من منفذ يمكنه من الوصول الى نقابة الفنانين الموسيقيين ؟ تلقفته عتبة الوزارة أو سواها سوى النقابة ، وكان لزاما عليه أن يتقدم بطلب انتساب الى النقابة المذكورة ٠٠ وأصبح قائد الاوركسترا المتمكن عضوا مكرها ، في نقابة لا تنال من كرامتها اذ قلنا أن أهم أعمالها هو تنظيم العمل في الملاهي الليلية ، فالعمل شرف على كل حال ، اذ ليس هناك من مجال عمل للعازفين والمطربين والمطربات سوى حانات الليل للاسف ، وهم في حرمان من عمل أرقى وأنظف ٠٠ وهكذا احتضنت النقابة فنانا قدم الى القطر يحمل مشروعا هاما ، واختفى المشروع في غياهب الفناء ٠٠ فليس من المعقول أن يفسح الجهل مجالا للعلم الا اذا كان هذا العلم مدعما بسلطة ٠

ونعود الى ايضاح الحقائق ٠٠ فنقول ان نقابة الفنانين ـ الموسيقيين لا تعترف الا بمن هم في دمشق من العاملين في حقل يطلقون عليه اسم فن ، ظلما وتحقيرا ، فتجعل العاملين تحت رقابتها وتستخرج عصبة متحدة مدعمة بحراس أشداء (محاسيب) تغذيهم ليكونوا قادرين على فقأ عين كل حسود متطاول ٠٠ من هم هؤلاء الحراس ؟ يتمكن القارىء الكريم من رؤيتهم على شاشة التلفزيون أحيانا ، يتصدرون لجان التحكيم والتقييم وهم لا يمتون الى الفن بصلة ، فيثنون على صوت ناشىء رأوا فيه التوسل والاذعان ، أو الفرض والسيطرة من خلفه ، ويستبعدون صوتا آخر لم يعجبهم فيه عدم ولائه لهم ، كأن الغناء ملك لهم ٠٠ يهيمنون على أذواق الجماهير ، فيفسدونها ٠

سؤال ملح : لمن هي الاذاعة ؟ لمن هو التلفزيون ؟ ونحصر سؤالنا في عالم الموسيقا والغناء فقط ٠٠!

ان النقابة تتجاهل كل موسيقي أو فنان مهما كان مستواه يأتي اليها من أنحاء القطر ، خشية أن تنفتح الابواب وتهز الكيان المنغلق المستبد في قلعته الحصينة المتمثلة بالاذاعة والتلفزيون ٠٠ فهل من المعقول أن يأتي شباب متخصصون دارسون ليجدوا أمامهم السبيل سالكا ؟

ان السبب كما ذكرت في مقال سابق هو أن العلم والثقافة يطردان الجهل ٠

ولكي لا نطيل على القارىء الكريم ٠٠ نجتزىء الحديث فنجعل له بقية ، في عدد قادم ، بقية قوامها رحلة تحليلية علمية الى قلب الاذاعتين ٠٠ لنضع أيدينا على مزيد من الداء تمهيدا لوصف الدواء رحمة بذوق المواطن المتعطش الى أغنية نظيفة تعبر عن آماله في حربه وسلمه وحبه ٠

هاني شموط

كوب من الارز المحمص

باك هاك ريم

كلما تذكرت شتاء عام ١٩٣٨ أتذكر ما جابهنا فيه من صعوبات وتعاودني خواطر لا تنسى فتسيطر علي ، وهاكم واحدة من تلك الحكايا وهي تمس قلبي حتى اليوم .

في مطلع شهر كانون الثاني من تلك السنة غادرت وحدتنا من جيش الثورة الشعبية بقيادة الرفيق كيم ايل سونغ شخصيا (مونغ شيانغ) الى منطقة (تشانغ باي) لتقوم فيها بعمليات على الحدود وضمن أرض الوطن . وكشف العدو تحركنا فأرسل الافا من جنوده للقضاء علينا وابادتنا . وجابه زحفنا مشاكل غريبة حقا ، لقد كانت الثلوج تنهمر بسخاء فسرعان ما شكلت طبقات سميكة ولم يكن بد من ان نشق لانفسنا ممرات عبر تلك الثلوج ، وأي ثلوج ... لقد تراكمت حتى بلغت ارتفاع قامة الانسان ، وأين ... عبر غابات كثيفة وعلى طول الاف ال (رى) . (ال رى ، وحدة قياسية كورية تساوي ٣٩٢٧م في النظام الميتري ، وهي ٣٦ شو) .

كنا نقاتل الاعداء في كل يوم وكانوا يقتفون أثارنا باصرار ويتعقبوننا بعناد ويلحقون بنا بصلابة على الرغم من كل ما كنا نكبدهم من خسائر جسيمة وننزله بهم من هزائم متتالية متوالية . لقد كان الاعداء يستهدفون مما كانوا يقومون به من عملياتهم التأديبية ابادة المقر العام لجيش الثورة الشعبية الكورية ، لذلك فقد كانوا يركزون ضغوطهم دون ان يحسبوا لتضحياتهم وخسائرهم أي حساب . وتابعنا الزحف في هذه الظروف طوال ما يقارب الشهر ونضبت مؤننا فأصبح زحفنا أكثر قسوة بل وكان عسيرا ... لقد ازدادت الصعوبات زيادة بلغت حدا يفوق التحمل ... كانت ظروف صعبة حقا ، ينقصنا العدد ، والطريق شاق وجاء نقص المؤن ليتوج هذه الاشكالات جميعا .

كان من الصعب على الوحدة ان تتحرك مجتمعة في اتجاه واحد لذلك فما ان أصبحنا على مقربة من (شيتاوكو) في مقاطعة (تشانغ باي) حتى قسم الرفيق القائد الوحدة وأرسل الانصار في ثلاثة اتجاهات على محاور مختلفة ، وتوجهت فرقة مكونة من عناصر زمرة الرشاشات بقيادة الرفيق القائد شخصيا نحو (تشيات ساي شـوى) في (شيتاوكو) في مقاطعة (تشانغ باي) وكان على الكتيبة السابعة ان تنفذ عملياتها في منطقة (هيهتسيات زوكو) ، وكان على الكتيبة الثامنة والكتيبة المستقلة ان تعملا في منطقة (نونغ كان) في مقاطعة (فوزونغ) ، ونظرا لصعوبات الزحف فقد أرسل الرفيق القائد عناصر مجموعة الخياطين – وهم اشخاص مسنون أنهكهم التعب – أرسلهم الى معسكر سري في (تشيشنغ فينغ) في مقاطعة (تشانغ باي) فكان من نتائج تلك الخطط أن توزعت قوة العدو . ولما أضاع اثار قواتنا الرئيسية والاثار مقرنا العام فقد اصبح الاعداء لا يدرون الى أين يتوجهون ، وتاهوا في البحث عنا ولكنهم لم يتنازلوا عن ملاحقتنا .

وكانت أوضاع تموين وحدتنا تزداد سوءا باستمرار على مر الايام ، وكثيرا ما اضطررنا لان نسكت جوعنـا بنخالة الذرة او بأوراق نباتات مجففة طوال ايام عديدة. وأضعف الجوع الرجال وأنهك قواهم حتى انهاروا وسقط بعضهم على الارض وقد ساروا أياما بطولها بلا طعام ولا شراب يدكون الثلج في أفواههم ويعاودون فيقفون ويتابعون سيرهم من جديد ... لقد كان أنصارنا يتحلون بمثل هذه الارادة ، ومثل هذه الارادة لا يمكن ان تقهر ، لقد كانت وحدتهم السياسية ووحدة الهدف ووحدة الامل بقيـادة الرفيق القائد هي التي أوجدت تلك الارادة لذلك فان صعوبات الدنيا كلها غير قادرة على اخضاعنا او حملنـا على الاستسلام والرضوخ .. لقد أكد رفيقنا القائـد وهو يشرح الهدف من زحفنـا بأن النصر لا محال حليف هجومنا على منطقة الحدود في الربيع القادم ما دمنا قد تغلبنا على الصعوبات والاشكالات جميعا . وجددت كلماته فينا عزيمتنا القتالية وجددت فينا شجاعة لا تقهر . فكنا نخوض مع الاعداء معارك ضارية ، المعركة تلو المعركة ضد قواه التأديبية الارضية تارة وضد قواه الجوية تارة أخرى ونتابع طريقنا نحو الحدود .

وفي محاولة لمواجهة النقص في التموين فقد أمر الرفيق القائد آمر مجموعة الحرس الرفيق ـ او بايك رايونغ ـ بأن يتدبر لتأمين مواد تموينية ، فقام الرفيق ـ او بايك رايونغ ـ ومعه عدد قليل من الرجال بمهاجمة منشرة في ـ شي تاوكو ـ كانت تسيطر عليها القـوات الامبريالية اليابانية وتستغل عمالها وغنم عشر رؤوس من الخيل وعاد بها الينا . ولم يكن لدينا وقت لشواء لحم الخيل فأكلناه نيئا أثناء الزحف عبر الثلوج ، ومن نافلة القول أن أذكر بأننا أكلنا ذلك اللحم بدون ملح ، فلقد نفذ كل شيء كان معنا حتى الملح .. ولم تنقض أربعة أيام او خمسة حتى كنا قد أتينا على لحم الخيل كله .

وكان كل من الرفيقين ـ كيم بونغ سوك ـ و ـ دجي بونغ صون ـ يعملان معي في ذلك الوقت كحجاب في المقر العام ، وكان الرفيق ـ كيم بونغ سوك ـ رئيس الحجاب، فبحث في حقائبنا وجمع ما كنا نحتفظ به من دقيق الارز المجفف ليكون وجبة احتياطية لانتناولها الا حين الضرورة الملحة عند الاضطرار . ولم يكن قد بقي سوى كمية لاتكاد تملىء كوب ماء ، وكان يقلقنا نحن الحجاب فوق كل شيء اننا كنا عاجزين عن تقديم وجبة للرفيق القائد ، وواضح اننا كنا نحن أنفسنا جياعا . وفي صبيحة ذات يوم توقفنا أثناء المسيرة لاستراحة قصيرة ، فقدمنا للرفيق القائد دقيق الارز المحمص الذي كان محفوظا في حقائبنا ، فتابعنـا بنظراته دون ان ينطق بكلمة واحدة ، ثم استدعى اليه الرفيق ـ دجي بونغ صون ـ وكان أصغر الحجاب سنا ـ وأعطاه دقيق الارز المحمص ، فأمسك الرفيق ـ بونـغ صون ـ الدقيق بيده ووقف حائرا لا يدري ماذا يفعل وقد أحرجه الموقف ، واغرورقت عيناه بالدموع ، فقرع الرفيق القائد على رأس الحاجب الشاب بضربة لطيفة يحثه بها على تناول الارز ، ومضى دون ان يركز انتباهه اليه . ولم يأكل الرفيق ـ بونغ صون ـ دقيق الارز المحمص وانما أعطاني اياه . وهكذا فقد عاد كوب دقيق الارز اخيرا الى حقيبتي في نهاية مطافه .

واستمر زحفنا وشققنا طريقنا نحو الامام ، وكان الاف من جنود الاعداء يتعقبوننا وعلمنا بأن مئات منهم كانوا قد تمركزوا أمامنا .. لقد كان الموقف حرجا في الحقيقة . وتوقف الرفيق القائد ودرس الموقف وأخذ منظاره وراح يتفحص طبيعة الارض ثم أعطى أمرا لمفرزة من الرجال بأن تتقدم وأمر الوحدة الرئيسية بأن تعود أدراجها الى الوراء وهي تمحي اثار أقدامها ، وبعد ان قطعت المفرزة مسافة قصيرة تركت الطريق وهي تمحي اثار الاقدام كما فعلت الوحدة الرئيسية تماما والتحقت بها . وهكذا فقد خرجنا مرة أخرى من مأزق حرج .

وبعد مسيرة يوم كامل أقمنا المعسكر قريب المساء ، وفي ذلك اليوم كنا مرة أخرى بدون تموين ، فأخذنا نذيب الثلج فوق النار لنشرب . وتداولنا نحن الحجاب ثم اتفقنا على ان نقدم من جديد دقيق الارز المحمص الى الرفيـق القائد ونحمله على قبوله وأكله . وقسمنا دقيق الارز المحمص الى حصتين وقدمنا احداهما الى الرفيق القائـد

واحتفظنا بالنصف الاخر لنقدمه اليه في وجبة قادمة ·

ونظر الينا الرفيق القائد بصمت وكان الجوع واضحا في وجهه هو أيضا · ولكن عينيه كانتا رقيقتين مشعتين كعادتهما ، وكان يبدو عليه انه قد أدرك بأننا كنا نخصه بكل ما تبقى لدينا من دقيق الارز · فسأل : كم من وجبات الطعام تجاوزتم دون ان تأكلوا ؟ فأجبنا الرفيق القائد كلنا دفعة واحدة : أيها الرفيق القائد ، لقد تناولنا وجباتنا ولم يبق الا أنت لم تتناول وجبتك ، فسأل من جديد والبسمة في وجهه : وهل تقصدون القول بأن علي ان آكل لوحدي ؟ ثم ، ألم يبق شيء مطلقا ؟ فأجبناه : لم يبق شيء · فقال اذن أروني جعبكم ، وتفقد جعبنا واحدة واحدة ، وتفقد جعبتي الرفيقين - كيم بونغ سوك - و - دجي بون صون أولا ولم يجد فيهما من دقيق الارز شيئا ، والآن لقد جاء دوري ، كان قلبي يضرب ضربات قوية ، وكان لابد لي من أن أخرج ما تبقى من دقيق الارز الذي كنت محتفظا به في قاع جعبتي ، ونظر الي الرفيق القائد وقال لي وهو يقهقه ضحكا : لقد كذبت علي ، ثم فرد الرفيق القائد صحيفة من الجريدة وسكب فوقها دقيق الارز ودعانا لان نجلس حولها ، فترددنا وتبادلنا نظرات الحرج ، اننا اذا أكلنا دقيق الارز هذا فلن يبق منه شيء لنقدمه اليه في وجبته المقبلة ، وكنا لا ندري ماذا نفعل ، وعندما لاحظ الرفيق القائد ترددنا أمسك بأيدنا وأجلسنا ، فلم يعد أمامنا الا أن نجلس حول كوب دقيق الارز · فقال الرفيق القائد تصوروا ان هنالك - مال - من دقيق الارز امامكم وسوف تشبعون ، هيا كلوا - ال مال ، وحدة قياسية كورية للاوزان تساوي ١٥ كغ في النظام الميتري - ، وأخذ قطعة من الورق وصنع منها ملعقة وأخذ يقسم دقيق الارز ، بيننا دون ان يهتم بحصة له هو نفسه ، ووزع الكمية كلها ، فأخذ كل منا جزءا صغيرا من حصته ووضعها أمام الرفيق القائد ولكنه أعادها الينا ووضعها أمامنا من جديد ، ولم يكن بوسعنا ان نرفض أكثر من ذلك فقبلنا وأخذ الرفيق القائد اخر حصة في النهاية ولكنه لم يضف الى نصيبه من دقيق الارز ماء الا بعد ان فعلنا ذلك جميعنا · ولقد بلغ بي التأثر حدا لم أستطع من أن أمرر دقيق الارز من بلعومي حتى بعد مزجه بالماء ، ولم أكن وحدي كذلك فلقد أحسن جميع ممن كانوا هنالك بنفس الشعور · لقد طلب منا الرفيق القائد ان نأكل كوب دقيق الارز كما لو كنا نأكل منه كمية - مال - ، ولكننا كنا نحس بأن الاف بل وعشرات الالوف من الـ - مال - من الاطعمة لا يمكن ان تساوي بأي شكل ذلك الحب الذي كان يحتويه كلامه · لا شك في أن السعادة والمحبة لا يمكن ان تقاسا بالغنى المادي مهما بلغ ، ولا يمكن لاي وليمة فخمة تحوي جميع أنواع المقبلات ان تكون ألذ طعما من الكمية القليلة من دقيق الارز الذي أكلناه في ذلك الوقت · لقد كان كوب الارز هذا غذاء قيما في نظرنا نحن أنصار الثورة ، لقد كانت تحتوي على أعز غذاء للثورة ، الطعام الذي كان يستعمله الرفيق القائد ليحولنا الى رجال ينظرون الى الخدمة على أنها بذل النفس في سبيل الوطن ، وتحتوي على سجية يمتاز بها الرفيق القائد هي عنايته بنا جميعا بمحبة وبعمق · وفي تلك الليلة بالذات وبقيادة الرفيق القائد مباشرة وبشجاعة مضاعفة مئة مرة أبدنا ذلك العدو الذي كان قد تحصن في معسكر في - شيه سان تاوكو - في مقاطعة - تشانغ باي - واستولينا على كمية كبيرة من مؤن ارسلناها الى وحدات الفدائيين الفرعية جميعا ، وطاردنا العدو في كل مكان ، في الغابات الكثيفة وفي الهضاب وذري الجبال المغطاة بالثلوج طوال فصل الشتاء ، ولكنه أضاع أثر المقر العام تماما كما أضاع أثر القوى الرئيسية لجيشنا ·

وأنهكت قوة الاعداء وضعفوا وتشتت شملهم وتبددوا بفضل خطط الرفيق القائد - كيم ايل سونغ - وتحركاته البديعة التي قوضت عمليات العدو التأديبية وكسرتها وهزمتها وقهرتها قهرا تاما · وتجمعت من جديد وحدات جيشنا التي كانت قد قاتلت في مختلف المناطق وأخذت طريقها لهجوم الربيع منزلة بالاعداء ضربات ساحقة ·

وكنا نحتفظ في أذهاننا بذكرى كوب دقيق الارز المحمص التي لا تنسى ، وبامرة قائدنا المظفر دوما هاجمنا الاعداء في منطقة - موزان - من أرض هجوما تلو الهجوم منزلين به الهزيمة والموت في منطقة الحدود خلال هجوم ربيع تلك السنة ·

قرأت في العدد الماضي

عدد آذار

تميز عدد آذار بباقة كبيرة من القصائد ، الى جانب ندرة من المقالات مع حوارين ناجحين مع العالم البحاثة روكس العزيزي ، وشاعر العروبة سليمان العيسى .

حرص ويحرص رئيس التحرير ــ وهو الشاعر ــ أن يقدم نموذجا حيا لشعر « آمن بأصالته وعروبته » ، كيما يكون مرجعا « لمن أراد معرفة اصالتنا الادبية وشعرنا الذي نعتز به » ... وانه لجهد مشكور يحمد عليه صاحبه !

ولئن لم تتجاوز المقالات في العد ثلاثا ، ولكنها في مجال الابداع تساوي الكثير الكثير . وان فيها لفائدة لقوم يعقلون : فالاستاذ شفيق جبري لا يحتاج الى تعريف ، ويكفيه انه معلم جيل الادباء في قطرنا . وقد تربع على العرش ــ عرش العدد ــ فلقننا درسا مفيدا عنوانه « خواطر في اللغة » ، كشف فيه النقاب عن التغيير الحاصل في استعمال بعض المفردات ، وما آلت اليه بعض الالفاظ من فناء ، مثلها مثل كل مخلوق على وجه البسيطة .

وكذلك فان الدكتور صفاء خلوصي، في نقده وتحليله للجزء الاول من كتاب « نحو النثر العربي الحديث » تأليف المستشرق كانتارينو ــ وهو استاذ امريكي من أصل ايطالي ــ عالج فيه الجملة البسيطة الخالية من التراكيب المعقدة والعبارات الاعتراضية .

وقد خلص الى التقرير بأن المؤلف أخطأ خطأ جسيما باتباعه النظرية الضالة المضللة التي تقول : « ان العربية المعاصرة لغة جديدة يتيمة الابوين » . وغبن أي غبن أن تدرس هذه المقالة الآثمة في الجامعات الغربية على يد كانتارينو وأمثاله ..

بقي عليّ أن أشير الى المقال الثالث الذي دبجه يراع الكاتب الشاعر اسماعيل عامود تحت عنوان « ناجي مشوح شاعرا وأديبا » ، اذ أعاد الينا سيرته الادبية ــ بعد طول احتجاب عن دنيا الادب ــ فأبان موهبته الادبية ، بشواهد عدول من شعره ونثره ــ على السواء ــ ، حتى لقد كان مقدرا له أن يكون في صفوف الشعراء الاوائل ــ فيما لو استمر في العطاء ــ ، فباكورة شعره تفصح عن ذلك أيما افصاح .

وبعد أن حببه الينا بنماذج رفيعة من شعره ونثره ــ استقاها من عدة مجلات دمشقية وبيروتية ــ محتجبة وغير محتجبة ــ ما بين ٩٤٢ و ٩٤٦ ، فانه اكثر من علامات الاستفهام عن مكنون صمته الطويل ، بعد ذلك .

وعلامات الاستفهام ــ هذه ــ كلها مقبولة ، باستثناء علامة واحدة ، فأنى لقريحته أن تنضب وفيها هذا الغدق الثر من الاصالة ؟!

وحيث أنه لا يجوز الاغماض عن صمته فانني أطلب من مجلة الثقافة تأليف محكمة أدبية ودعوة ناجي المشوح ــ بوصفه مدعى عليه ــ ثم الحكم عليه بالعودة الى أيكة الادب ، ليصدح ما طاب له ، وليشنف آذاننا بهذا الصداح ، تلبية لطلبات المحبين والمعجبين به . فما احوجنا الى الاصالة، بعد ان استنسر البغاث من الطير ، ومن كل من هب ودب. وانا لمنتظرون ! ...

مصياف : مصطفى الخش

رسائل الأصدقاء

● الى الاديب الكبير الاستاذ حسان الكاتب ـ دمشق

يا كاتب الخير اني قارىء عـــان ... أوشكت أقرأ وجه العـــالم الثاني
تراجع الموت عني بعـــد غـبارته ... كأنه لم يشـــأ اســكات شيطاني
أو أنه احترم البيت العتيق فما ... اوهى دعائمـــه الا بميزاني
أو أنه كـــــاد لي مستمهلا أجلي ... للنيل من حرمتي من بعد جسماني
أصبحت أفتقد الاشجان ، أنشـدها ... منذ اختبرتك معنيا بأشجانـي
لم تنسني حين صرف الدهر حجبني ... بل انتشلت من النسيان ديـواني
آلات فضـــلك وأفتني مخمسة (١) ... لم تنتظم حولها هـــالات عرفاني
أعيت لســـاني فاستنطقت عاطفتي ... أحدوثة الشكر وجدانا لوجـدان !
عذري اذا لم أعددهـــا علانيـــة ... أن البقية تأتي ٠٠ بعد اعلاني
(حسان (٢)) مدح رسول الله شرفه ... والآن شرفني مدحي (لحسان(٣))

باريس ١٦ـ٣ـ١٩٦٧ **جورج صيدح**

---

(١) الاستاذ حسان الكاتب كتب دراسة مطولة عن ديواني القديم ونشرها في خمس دوريات

(٢) حسان بن ثابت شاعر الرسول ٠ (٣) حسان بدر الدين الكاتب ـ صاحب الموسوعة الموجزة بدمشق ـ

● الى الصديق اسماعيل المير علي ٠٠

أكبرت جهدك في التعريف برسائل « اخوان الصفاء وخلان الوفاء » المنشور في العدد ١١ المؤرخ في ١٣/٣/٩٧٦ من مجلة الثقافة الاسبوعية ٠ وللمناسبة فان صاحب هـذه الرسائل الفلسفية الشهيرة هو الامام الوفي أحمد بن عبد الله كان مقيما في مصياف عندما تولى نشرها بواسطة دعاتـــه الاربعة ٠

ويرجح ألا يكون قد فعـــل ذلك ـ ابان مكوثه في السلمية لمدة قصيرة ـ بل لا بد أن يكون قد قام بتسطيرها في مصياف ، نفسها ، باعتبارها معقلا جبليا حصينا ، في حين أن السلمية بلدة سهلية مكشوفة ، تسهل للاعداء النيل منه ٠ سيما وان والده الامام عبد الله ـ الذي كان قد اتخذ له مقرا في السلمية ـ تعرض لعدة هجمات من العباسيين ، دون جدوى ، لانه كان سريع التنقل في المدن والبلدان التالية: معرة النعمان ، مصياف ، حمص ، حماة ودمشق ٠

واذا كان الحال كذلك فان هذه الرسائل قد تـــم تصنيفها في مصياف مما يبشر بحسن طالعها ـ آنذاك ـ فالى ذلك اقتضت الاشارة وبوركت وعوفيت للمخلص ٠

مصياف **مصطفى الخش**

● نشر الاستاذ الشاعر الصديق رفيق الفاخوري الابيات التالية في جريدة العروبة في حمص بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ ٠

مت بداء الافلاس

أيها الشاعر الذي جيبه خاو على أن قلبه جـــد عامـر
عبقري الزمان أنت فلم لا تجلب الرزق أو تحوز الذخائر
صانع المعجزات أنت ، فلم لا ينبط الحظ ما يفيض الخاطر
أين ما تبدع القريحة من نظم عجيب كأنه صـــنع ساحر
هل محا قط ما تخط المقادير ، وهل أطعم الفقير الصابر
زحم القاعدون بالمنكب الانجـــم يا باركا بروك الاباعر
مت بداء الافلاس ولتى من بعـــدك كتب مخزونة ودفاتر

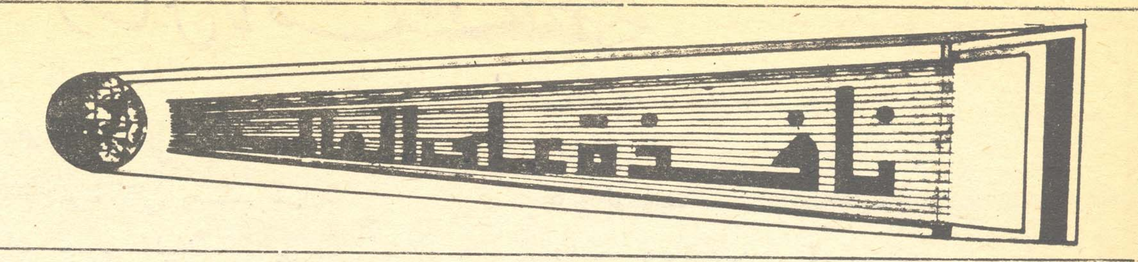
رفيق فاخوري

وأجاب عليها الاستاذ أحمد الجندي بهذه الابيات :

لا تلم ٠٠٠!

لا تلم شاعرا وأنت الشاعر وتذكر ما قدرته المقادر
هبة الشاعر الرهيف بدنياه يراع ماض ولفظ ســـاحر
وحديث موقـــع وقصيد يتغنى بما تكن الضمائر
لا تلمه على القعود عن السعي فسعي الاديب بين الدفاتر
أو ترضى اذا حرمت من الشعر بأموال زارع أو تاجر
أدركتنا ياصحبي حرفة الفن فلا ترجون عيش الاكابـــر
كل شيء يزول الا دموعا من كلام ، جـــادت بهن المحابر

أحمد الجندي



● مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ، ومقره الدائم في الرباط ، يوالي تنظيم مسابقات تتعلق باختصاصه .

لقد كان موضوع مسابقته الاولى ، تقديم مخطوط مستوفي الشرح والتعليق ، نال جائزته الثانية استاذ من العراق ، والثالثة والرابعة كانتا من نصيب أستاذين من مصر ، أما الاولى فقد احتفظ بها المكتب .

ونظم مسابقة ثانية ، لعام ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ ، فمنح جائزته الاولى للدكتور تمام حسان عميد كلية دار العلوم في القاهرة ، عن كتابه « القرائن النحوية » ، ومنح الثانية للدكتور عبد العزيز شرف عن كتابه «الاعلام ولغة الحضارة» وللدكتور أحمد مختار عمر المدرس في جامعة ليبيا ، عن تحقيقه ودراسته لكتاب « معجم ديوان الادب للفارابي » أما الجائزة الثالثة فقد كانت من نصيب الدكتور عبد الله شحاته عن تحقيقه كتاب « الاشباه والنظائر » لمقاتل بن سليمان البلخي .

ونظم مسابقتين اخريين لسنة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ فكانت النتائج كالاتي :

الجائزتان الاولى والثانية، منحت للدكتور نور الدين عتر من دمشق عن كتابيه « معجم المصطلحات الحديثية » و « معجم المصنفات الحديثية » .

والجائزة الثالثة ، منحت للدكتور نزار الدقر من دمشق أيضا ، عن كتابه « العسل ، فيه شفاء للناس » .

«والثقافة» تقدر لمكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ، هذه المبادرة القيمة في احياء العظيم من التراث العربي وتحقيقه ودراسته بدقة ، بالوقت الذي تهنىء فيه الاساتذة الفائزين بالجوائز .

● « هندسة الرؤى البشرية » كتاب هو باكورة انتاج المهندس محمود سلامة ، صدر في دمشق . وهو مجموعة مقالات وتأملات فكرية ، درس فيها جوانب مختلفة من الحياة بعمق ، واقتضاب ، فقد عمد المؤلف الى تصوير أفكاره بأقل ما يمكن من الكلمات لئلا يغرق في التفاصيل ـ كما يقول ـ وتضيع جوانب هامة من الصور التي يحسها .

ويرى المؤلف ضرورة ادخال العلم الى بنيتنا ، لنتعلم الاختصار ، حتى في تفكيرنا ومعتقداتنا ، وأن لا ننسلخ عن ماضينا وتراثنا ، أثناء معالجة واقعنا .

الكتاب جدير بالمطالعة والتأمل .

● وفي دمشق ، صدرت مجموعتان شعريتان، للشاعر نهاد رضا .. وتأتيان بعد ثمانية دواوين نشرت له .

عنوان المجموعة الاولى « أنا وأنت .. وقوس قزح » تناول فيها الشاعر ، الحياة العاطفية في اطار بدائي طفولي .

والمجموعة الثانية ، عنوانها « البعد اللا منظور » وتناول فيها وقائع ماضية معاشة ، من خلال بعد جديد ، ونظرة جديدة عميقة ،

وباسلوبها الرمزي الايحائي ، زينت الفنانة سحر أرناؤوط ، المجموعتين برسومها .

● صدرت في دمشق المجموعة الشعرية الاولى ، للشاعر طلعت محمود سقيرق ، يضم عددا من القصائد الجيدة ، البعيدة عن الغموض ، فقد كانت لغة الشاعر بسيطة ، ليس فيها كلمات غريبة ، بخاصة في قصائده الغزلية ، التي تحتاج الى مثل هذه اللغة البسيطة .

● في أقبية أحد المصارف في مقاطعة (ليتنشتاين) الواقعة بين سويسرا والنمسا ، ترقد مجموعة من المخطوطات النادرة ، يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل ألف ومأتي سنة ، وبعضها كتب على ورق البردي ، تضم نحو (٤٠٠)

مخطوطة بالعربية ، و (١٦٠٠) بلغات أخرى قديمة ٠ ومن بين هذه المجموعة قرار أحد الخلفاء بتنصيب عامل على احدى الولايات في القرن الثامن الهجري ٠

كانت هذه المخطوطات في القدس ، وحاولت اسرائيل منع تسربها ، الا أنها فشلت ٠ و « الثقافة » تناشد معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، أن تبذل جهودها المخلصة للاستفادة من هذه المخطوطات النادرة ، التي ستلقي الضوء على كثير من أحداث التاريخ العربي التي تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

● البنية الايقاعية للشعر العربي » عنوان كتاب أصدره الدكتور « كمال ابو ديب ، الاستاذ في احدى جامعات لندن ، وهو عربي سوري ، يبحث الكتاب في الطاقة الموسيقية الاساسية في اللغة ومدى انعكاسها في الشعر ٠

● قام الدكتور محمود صبح ، بتكليف من المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بترجمة مذكرات الشاعر الاسباني « نيرودا » الى العربية ، في هذه المذكرات يروي الشاعر مرحلة تاريخية ، لعب فيها الشعر دورا رئيسيا حيث قاتل الشعراء ضد الفاشية ، تكتسب هذه المذكرات أهميتها من تأكيدها على : أن العلاقة بين شعراء القضية الواحدة ـ الانسان ـ هي التي تلعب دورا هاما في المعركة ضد أعداء بلادهم ٠

● صدرت عن دار الاعلام الموحدة ، المجموعة القصصية الرابعة للكاتب الفلسطيني رشاد أبو شادر ، عنوانها « الاشجار لا تنمو على الدفاتر » تضم قصصا له لم تنشر من قبل ٠

● تقرر في بغداد تنفيذ توصيات بنشر مصنفات الفارابي المعلم الثاني كاملة ، وتشجيع الدراسات التي تناولت حياته وآثاره ، وتقرر أيضا عقد مهرجانات للفلاسفة والعلماء العرب الذين لم يحظوا بعناية أحد ٠ بهذه المناسبة ، فقد أصدرت مجلة « المورد » عددا خاصا عن الفارابي ٠

● « معركة الالفي سنة » مسرحية جديدة ، لكاتب ياسين ، صدرت حديثا في الجزائر ٠ كتب حوارها باللهجة الجزائرية ، فقد رأى أن يلتقط الحوار من فم الشعب ، فاختار الحركة الثقافية للعمال الجزائريين ، حيث المجال فسيح للعمل الجماعي الذي يريده ، وحيث يكون قريبا من حياتهم الخاصة ٠

● وعن دار النشر المغربية ، صدرت مجموعة شعرية للشاعر أحمد بنميون ، عنوانها « تخطيطات في هندسة الفقر » ٠ تتميز قصائده بطغيان النفس الشعري الطويل ، وتتداخل الخصائص الموسيقية بخصائص اللغة ٠

● « بتهوفن من الاعماق » كتاب جديد صدر في لندن ، للمفكر الانكليزي (ايرفنغ كلود نيسان) ٠ أعاد فيه تقييم الاعمال الموسيقية للفنان الالماني العظيم بتهوفن التي نالت حظها من اهمال الباحثين والدارسين الموسيقيين،

● وامتدت الايدي الاثيمة أثناء حوادث لبنان الدامية، الى دار النشر التي يملكها الشاعر نزار قباني ، فسطت على المكتب الانيق ، وسرقته قطعة قطعة ، ثم أضرمت النار بأوراقه ودفاتره التي كان يخطط فيها شعره ونثره ٠

● آخر روايات المرحوم الدكتور طه حسين المسماة « ما وراء النهر » سترى النور قريبا ، اذ تعد للنشر في القاهرة ، بدأ عميد الادب العربي بكتابتها منذ ثلاثين عاما، ونشر بعض فصولها في مجلة « الكاتب » التي كان يرأس تحريرها ، ثم توقف ٠ للرواية مقدمة وحبكة ، لكن الخاتمة تنقصها ٠

● صدر عن دار النشر الاسبانية « قبور » في مدريد، كتاب بالاسبانية ، يضم أشهر قصائد الشاعر العربي الكبير « نزار قباني » السياسية ، والتي كان لها أثر عميق في وجدان المجتمع العربي ، من هذه القصائد : « هوامش على دفتر النكبة » و « خبز وحشيش وقمر » و « القدس » وغيرها ٠ هذه هي ثاني مجموعة من قصائد الشاعر العربي التي ترجمت الى الاسبانية ، فقد ترجم له المستشرق الاسباني «بدرومارتنيت مرنتافت» عددا من قصائد الحب٠ ويعتبرها المؤلف من سجل عبقرية هذا الموسيقي العظيم ٠